

508 - 582 هـ / 1114 - 1187 م

تأليف

محمد بن شريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1996

ابن لبال الشريشي

508 - 582 هـ / 1114 - 1187 م

تأليف
محمد بن شريفة
عضو أكاديمية المملكة المغربية



الطبعة الأولى 1416-1996

إهـــداء

إلى روح شيخ المستعربين الاسبان ضون إميليو غرسية غومس ــ قومس الدّشار ــ الذي توفي خلال إعداد هذه الدراسة.

تقـــديم

كنت نشرت في كتابي : «أبو تمّام وأبو الطيّب في أدب المغاربة» رسالة في النقد الأدبي لابن لُبّال الشريشي مع تعريف به وإيرادٍ لمجموعة من شعره، ثم إنّي وقفت بعد ذلك على مادة جديدة حول حياة هذا الأديب، ووجدت كذلك طائفة أخرى من أشعاره.

وقد بدا لي أن القسم الخاص بابن لبال هذا في كتابي المذكور يستحق بفضل المعطيات الجديدة أن يكون كتابا مستقلا، ويصبح سيرة مخصّصة لهذا العالم الجليل، لاسيما أن الطبعة القليلة العدد من الكتاب التي صدرت منذ عشر سنوات ينبغي أن تكون قد نفِدَت. ثم إنه من حق ابن لُبّال وأمثاله من الأعلام غير المدروسين حتى الآن أن تفرد سيرهم، وتبسط أخبارهم، وتنشر آثارهم، كلما تيسرت المواد، وأسعفت الوسائل.

وقد خرجت هذه السيرة في ثلاثة فصول :

أولها يدورُ حول شريش مدينة ابن لبال، وأضفتها إليه لأنه يقع في طليعة الأعلام المنتسبين إلى هذه المدينة، ولا نعلم أن أحداً منهم كانت له مثل مكانة ابن لبال في شريش سواء في حياته أم بعد مماته، وقد توسعتُ في الحديث عن هذه المدينة، وتتبّعْت أخبارها خلال العهود الإسلامية عموما، وعلى عهد الموحّدين خصوصا، إذ في أوائل هذا العهد عاش ابن لبال.

والفصل الثاني خاصّ بحياة ابن لبال، وقد جمعتُ في هذا الفصل ما يتعلق بضبط اسمه وشهرته، وتحقيق نسبه، وتحديد ميلاده ونشأته، وتعيين شيوخه ودراسته، وتوضيح وظيفته وعمله، وذكر بعض أصحابه وتلاميذه، ورسم شيء من ملامح شخصيته وجوانب حياته، مع التعرض إلى مكانته في مجتمعه ومَقامه عند أهل بلده.

أما الفصل الثالث فقد تكلّمت فيه على آثاره النثرية والشعرية، فأما الآثار النثرية فمنها رسائله الإخوانية التي لا نعرف عنها شيئا، ومنها شرحه لمقامات الحريري

الذي مازلنا نطمع في العثور عليه، وقد عرفت به من خلال النقول التي وقفت عليها، وبيّنت أنه أوّل شرح للمقامات في الأندلس، ومن آثاره النثرية كتاب المحكم في حروف المعجم، ولا نعرف منه إلا هذا الاسم وكذلك مقدّمته في العروض التي ذكرها ابن عبد الملك المراكشي. ولم يصل إلينا من آثار ابن لبال النثريّة إلا رسالته النقدية : «روضة الأديب، في التفضيل بين المتنبّي وحبيب» ويوجد في هذا الفصل تعريف بها وتحليل موجز لها، وفي هذا الفصل أيضا كلام حول شعر ابن لبال أو الموجود من شعره وقد اختصرتُ فيه القول واقتصرتُ على الإشارة إلى طابعه العام وأوردت بعض ما قيل فيه.

وذيلت هذا العمل بملاحق : أولها يشتمل على ما جمعته من شعر ابن لبال وقد رتبته على الحروف.

وثانيها يحتوي على الرسالة النقدية التي عنوانها : «روضة الأديب، في التفضيل بين المتنبّي وحبيب»، وباقيها يشتمل على أشياء لها علاقة بالموضوع. وقد بذلت جهدي في تحقيق هذا النص وضبطه وفي تخريج الأشعار وضبطها كذلك، وتمّمت العمل كله بالفهارس المناسبة.

وأشير في الأخير إلى أني أوردت خلال فُصول الدراسة بعض النصوص والشواهد بتمامها، ولعلي أكثرت منها أحيانا، ويشفع لي في هذا أنها نصوص وشواهد منتزعه من مخطوطات نادرة أوْ أن طبيعة الموضوع تستدعيها كما هو الشّأن في شواهد المجبّنات مثلا.

وفي رأيي أن الصيغة الأولى في أي سيرة لابد لها من أن تكون مدعّمة بالنصوص وموثّقة بالشواهد، ولمن شاء بعد ذلك أن يعيد كتابتها مستنيراً بها ومستمدّاً منها، وهذا هو شأن السِّيَر في الآداب التي نحت نحو التراكم، وهو ما ينشده الباحثون في الأدب العربي عموما والأدب الأندلسي والمغربي خصوصا، حقق الله الآمال، إنه سبحانه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

الفصل الأول

مدينة

كانت شريش التي ينتمي إليها ابن لبال تابعة طوال العهد الأموي لمدينة شذونة ومضافة إليها، فكانت تدعى شريش شذونة، وذلك لأن مدينة شذونه : Medina Sidonia كانت قصبة الكورة التي تنسب إليها، وهي الكورة التي يصفها الرُّشاطي بأنها «كورة شريفة جامعة لخير البَر وبركة البحر، وفيها كانت الهزيمة على ردريق حين افتتحت الأندلس»[1] وقد أضاف الحميري إلى هذا الوصف أنها «كريمة البقعة، عذبة التربة، تفيض مياهها، فلا تذوى مع المَحْلِ ثمارها»[2] وذكر ابن سعيد أنها كانت «من أجلّ كور إشبيلية محرثاً وشجرا ومياها وضياعاً وماشية»[3].

اشتهرت هذه الكورة في عهدي الإمارة والخلافة بكثرة خيراتها ووفرة جباياتها[4]، وكان لها ذكر في الأحداث التي وقعت في الحقبة المذكورة وكذلك في تعيينات الولاة والقضاة بها أيام عبد الرحمان الناصر والحكم المستنصر ومن قبلهما[5]، وظهرت فيها وفي قصبة الإقليم قلسانة حركة علمية بارزة خلال العهد الأموى، وقد ترجم ابن الفرضي لعدد مهم من الأعلام الذين أنجبتهم مدينة شذونة وقصبة قلسانة[6]، ومنهم أبو أيوب عتاب بن بشر (311هـ-381هـ) قال ابن الفرضي القرطبي في ترجمته : «رحلت إليه في شذونة وقرأت عليه كثيراً وأجاز

---

(1) الأندلس في اقتباس الأنوار : 82، 191، مدريد 1990.

(2) الروض المعطار : 338.

(3) المغرب 1 : 301، ط 3.

(4) في الروض المعطار : وكانت جباية شذونة في أيام الأمير الحكم بن هشام خمسين ألفاً وستمائة [ديناراً في السنة].

(5) راجع الأجزاء المنشورة من المقتبس لابن حيان، وقد ولي كورة شذونة مرّة أمير أموي هو مسلمة بن الأمير محمد، وفي ولايته لكورة شذونة يقول الشاعر مومن بن سعيد :
تِيهِي شَذُونَةُ واختالِي عَلَى ٱلْكُوَرِ ... وابْأَنِي بِمَسْلَمَةَ ٱلْفَيَّاضِ وافْتَخِرِي
المقتبس (تحقيق الدكتور مكي) : 211.

(6) انظر فهرس تاريخ العلماء لابن الفرضي.

لي ما سمعه وكان حافظا للرأي على مذهب مالك وأصحابه حسن النظر فيه» وكذلك كان أبوه وجده[7].

ولما أصاب الخراب قلسانة ثم شذونة[8] تحول العمران إلى شريش وصارت قاعدة الكورة[9] ابتداء من عصر الطوائف، فقد ثار فيها ابن حمّود[10]، ثم أصبحت مركزاً قوياً في عهد المرابطين[11]، ولما ظهر الموحدون وبدت معالم غلبتهم كانت مدينة شريش من أوائل المدن الأندلسية التي أعلنت طاعتها لهم، وذكر مؤلّف روض القرطاس أنها كانت أول مدينة دخلها الموحدون صلحاً، قال :

«ولمّا فتح (عبد المومن) مدينة تلمسان بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف فارس من أجناد الموحّدين، فنزلوا بساحل الجزيرة الخضراء، فكان أول مدينة فتحوها من الأندلس مدينة شريش، فتحوها صلحاً، كان بها قائدها أبو الغمر من بني غانية في ثلاثة آلاف فارس من المرابطين، فخرج بمن معه فتلقى الموحدين وبايعهم لعبد المومن ودخل في طاعته، فكان الموحدون يسمونهم السابقين الأولين وحرّرت أملاكهم، فلم تزل أملاكهم محرّرة إلى انقضاء أيامهم، فليس في أملاكهم رباعة وجميع بلاد الأندلس مربّعة، وكان ملوك الموحّدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس للسلام في كل سنة أول من ينادى من أهل البلاد أهل شريش، فيقال لهم : أين السابقون أهل شريش يدخلون للسلام، فإذا سلّموا وقضيت حاجاتُهم انصرفوا فحينئذ يدخل غَيْرهم.

وكان فتح شريش في أول يوم من شهر ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[12].

---

(7) انظر تراجمهم عند ابن الفرضي 1 : 344-45، 2 : 167.

(8) في الروض المعطار أن بني السليم انصرفوا إلى مدينة شذونة التي عرفت باسمهم، وصاروا فيها عند خراب مدينة قلشانة، ويقول الزهري الذي رأى شذونة ـــ فيما يظهر ـــ عام 532هـ : «وهي اليوم خالية خربة» (ص 93).

(9) يقول ياقوت المتوفى سنة 626هـ عن شريش : «مدينة كبيرة من كورة شذونة، وهي قاعدة هذه الكورة اليوم».

(10) المغرب 1 : 303، كان بنو خزرون قبل بني حمود قد تأمروا في شذونة.

(11) روض القرطاس : 188، ط. الرباط 1972.

(12) نفسه.

وهكذا غدا أهل شريش وقائدها أبو الغمر بن عزون مثالا للطاعة والاستقامة وآية في الوفاء والإخلاص للموحّدين، والدليل على ذلك أنه لما قام أهل الأندلس على الموحدين في أول أمرهم سنة 543 هـ[13] كان أبو الغمر هو الوحيد الذي ثبت على طاعة الموحدين وتم لهم استرجاع الأندلس على يد هذا القائد الكبير[14] وقد ظل أهل شريش سبّاقين إلى السّمع والطاعة مبادرين بتوجيه الولاء والبيعة للخلفاء الموحدين، ومن أمثلة ذلك بيعتهم ليعقوب المنصور وقد كتبها عن أهل شريس الأديب أبو عمرو ابن غياث[15] تلميذ مترجمنا ابن لبال، ونوردها فيما يلي نقلا عن كنز الكتاب[16] للبونسي قال :

«وَمِنْ إِنْشَاءِ الْفَقِيهِ ٱلْكَاتِبِ الماهِرِ شَيْخِنا أَبِي عَمْرٍو مُحمَّد بْنِ عَبدِ ٱللَّهِ بْنِ غَيّاث مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ أَهْلِ شَرِيشٍ فِي بَيْعَةِ أَمِيرِ المُومِنِين أَبِي يوسُف الْمَنْصورِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ :

الْحمدُ لِلَّه الَّذي يسَّر أسبابَ الخَيْرِ وَسَهَّلَها، وأَدْنَى قِطافَ الأَماني وذَلَّلَهَا، وأَهَّل لِلْخِلاَفَةِ خُلفَاءَ كَمَا لَهُمْ أَهَّلَها، وأسَّسَ قواعدَها عَلَى قَواعِدِ البرِّ والتَّقْوى وأصَّلَها، وَجَعلَ الفُتوحاتِ خُدَمَاءَها وخَوَلَها، ﴿مَا يَفْتَح ٱللَّهُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾.

والصَّلاَةُ عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ المُبْتَعَثِ بَشيراً وَنَذيراً إِلَى كافَّةِ الأُمَمِ وَالْكُفْرُ قَدْ أَغْواها وَخَذَلَها، وحَمَلَها من الطّغيان والعِصيان عَلَى ما حَمَلَها، فبيَّن سَنَن السُّنَن والْفَرائض وأَوْضَح سُبُلَها، وصَدَع بأَمْرِ ٱللَّهِ حَتَّى شَفَى أَدْواءَها ومَسَح عِلَلَها.

والرّضا عنِ الإمامِ المَعْصومِ المَهْدِيِّ الْمَعْلُومِ القائِمِ بأَمْرِ ٱللَّهِ آخِر الأَعْصارِ

---

(13) البيان المعرب، قسم الموحدين، (1985) : 38.

(14) نفسه : 39.

(15) انظر ترجمته ومصادرها في تحفة القادم : 181–183.

(16) كنز الكتاب: 41–42 وهو مخطوط تقوم بتحقيقه السيدة حياة قارة الأستاذة بكلية الآداب بفاس، وانظر ترجمة مؤلف الكتاب في التكملة : 172.

وقَدْ بشّر بِهِ أَوّلَها، بِواضِحِ ٱلْعَلاَماتِ والدِّلاَلات عَلِمَها مَنْ عَلِمَها وَجَهِلَها مَنْ جَهِلَها.

والدُّعاءُ لِصاحِبِهِ وخَلِيفَتِهِ سَيِّدِنا وَمَوْلانا أَمِيرِ ٱلْمُومِنِينَ الَّذي تَمَّمَ تِلْكَ ٱلْبِدَايات وَأَكْمَلَها، وَسَقَى نُفوسَ ٱلْخِلاَفَةِ مِنَ ٱلْعَدْلِ نَميرَها وَسَلْسَلَها، ولِسَيِّدِنا ومَوْلاَنا ٱلْخَلِيفَةِ أَميرِ ٱلْمُومِنِين بْن أَمير ٱلْمُومِنِينَ ٱلْمُتَكَفِّلِ لِطائِفَةِ التَّوْحِيدِ بِالنَّصْرِ ٱلَّذِي ٱكْتَنَفَها وَكَفَلَها، وَمَدَّ لَها ظِلالَ النّجاةِ بِجَمِيعِ ٱلأَرْجاءِ وَالْجِهاتِ وَرَفَعَ ظُلَلَها، ولاِبْنِهِ ٱلأَمِيرِ ٱلأَجَلِّ ٱلْمَنْصورِ النَّاصِرِ لِدِينِ ٱللَّهِ أَبِي يوسُف بْن ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُرْتَضَى مُبْلِغِ ٱلْخِلاَفَةِ أَمَلَها وَمُسَوِّغِها جَذَلَها، الْمُعِدّ لِطائِفَةِ ٱلزَّيْغِ مِنَ ٱلبِيضِ وَالسُّمْرِ قِراها وَنُزُلَها، ٱلْمُجَلِّي غَيَاهِبَها وَالْكُفْرُ قَدْ أَسْبَلَها وَسَدَلَها، بِفُتوحاتٍ تَشْتَمِلُ عَلَى أَقالِيمَ لَمْ تُصِخْ لِلدَّعْوَةِ ٱلإِمامِيةِ أَسْماعَها فَسَبَقَ سَيْفُها عَذَلَها.

وَإِنَّ ٱللَّهَ تَعالى لَمَّا بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ٱلنَّاسِ كافَّةً بَشِيراً وَنَذِيراً، وداعِياً إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجا مُنيراً، دَعَا إِلَى الْهُدَى، وَأَوْضَح طُرُقَ الشَّرِيعَةِ مُنْفَسِحَةَ ٱلْمَدَى، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ، وَأَلاَنَ وَسَدَّدَ، وَيَسّرَ وَمَا عَسَّرَ، وَبَشّرَ وَمَا نَفّرَ، فَهَدَى بِهِ مَنْ هَدَى إِلى ٱلصِّراطِ ٱلْمُسْتَقِيمِ، وَالْمِنْهَاجِ ٱلْقَوِيمِ، ثُمّ بَشّرَ بِذَخِيرَةِ ٱلْوُجُودِ، وَسِرِّ ٱلنَّبَإِ ٱلْمَقْصودِ، ٱلإِمامِ ٱلْمَعْصُومِ، ٱلْمَهْدِيّ ٱلْمَعْلُومِ، فَلاَحَتْ بَشائِرُهُ بِالْمَغْرِبِ ٱلأَقْصَى، وانْتَشَرَتْ أَنْوارُ هِدَايَتِهِ فِيمَا دَنَا مِن ٱلأَقالِيمِ وَقَصَا، مُتَمَيِّزاً بِالْعَلاَماتِ، مُبَرّزاً بالدِّلاَلاَتِ، فَأَحْيَا السُّنَنَ وَالْفَرائِضَ بَعْدَ دُروسِهَا وبَسطَ وُجُوهَ الأَمَانِيّ بَعْدَ عُبُوسِها، عَلَى حِينِ انْقِراضِ ٱلْحَقَائِقِ، وَجَهْلِ ٱلْخَلاَئِقِ، فَقَطَعَ أَسْبَابَ تِلْكَ ٱلْعَلاَئِقِ، وَبَسَطَ ٱلْعَدْلَ فِي ٱلْمَغَارِبِ وَٱلْمَشارِقِ، ثُمَّ أَكْمَلَ ٱللَّهُ تِلْكَ ٱلبِدَايَة، وَأَبْدَأَ ٱلْهِدَايَة، بِخَلِيفَتِهِ أَمِيرِ ٱلْمُومِنِين، ٱلْمُشْرِقِ ٱلْجَبِين، عَنْ أَنْوارِ ٱلْفَتْح ٱلْمُبِينِ، ثُمَّ وَلَّى أَمْرَهُ ٱلْعَزيز احْتِياطاً لِلدِّينِ ابْنَه ٱلْخَلِيفَةَ ٱلأَهْدَى أَمِيرَ ٱلْمُومِنِين بْنَ أَمِيرِ ٱلْمُومِنِين، الَّذي يَأْوِي ٱلْعَدْلُ مِنْهُ ﴿إِلَى رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾، الْمأْثُورِ ٱلآثار، ٱلْوَاضِحِ الآياتِ وُضُوحَ النَّهار، ثُمّ انْعَقَدت ٱلْبَيْعَةُ عَنْ إِجْماعٍ مِن ٱلْجَمَاعَةِ ٱلطَّاهِرَة، وَالطَّائِفَة الظّاهِرَة، عِلْماً مِنْهُمْ بِمَخَايِلِ ٱلاعْتِناء الإِلاَهِيّ وَدِلاَلَتِهِ، إِذِ ٱلْخُلَفاءُ وَرَثَةُ ٱلأَنْبياء و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾، وَنَظَراً

لِدينِ ٱللَّهِ وَعِصْمَةً لِعَبيدِهِ، وَأَخْذاً بِعُقُودِهِ كَما أَمَرَ وَعُهُودِهِ، لِلأَميرِ ٱلأَجَلِّ ٱلْمَنْصُورِ ٱلنّاصِرِ لِدينِ ٱللَّهِ أبو يوسُفَ بْنِ ٱلْخَليفَةِ أَميرِ ٱلْمُومِنِينَ بْنِ أَميرِ ٱلْمُومِنِينَ، أَيَّدَ ٱللَّهُ أَمْرَهُمْ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُمْ، فَاسْتَقَرَّ ٱلأَمْرُ فِي قَرَارِهِ، وَانْتَهى إِلى قُطْبِ مَدَارِهِ، فَاقْتَدَى بِهِمْ سَلَفُ ٱلْمُوَحِّدينَ، وَكَافَّةُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وبايَعُوهُ بَيْعَةَ ٱلرِّضْوان، وَأَعْطَوْهُ صَفْقَةَ الأَيمَان، ومَوَاثِيقَ ٱلأَيْمَانِ، فَشَدّت أَرْكَانَ ٱلإِيمانِ، وَنَفَخَت ٱلأَرْواحَ في الأَجْسام، ونادَى بِهَا مُنادِي ٱلْحَقِّ فِي ٱلأَنَام : هَا هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوان يُشْرَعُ وَسَطَها بابُ السّلاَمَة فَادْخُلُوها بِسَلاَم، **فَتَلَقّى عَبِيدُه كافّةُ أَهْل شَرِيشٍ ذَلِكَ ٱلْمُنادِي أَفْواجاً**، وَسَلَكُوا إِلى الطاعة مِنْهاجاً وبادَرُوا إِلى ٱلْفَرْضِ ٱلَّذِي فيهِ ٱلْبِدَارُ يَجِب، بِقُلُوبٍ تَكادُ شَوْقاً إِلى ذكره أَوْ تلاَوتِهِ تَجب، وَبَايَعُوهُ بَيْعَة خالِصَةً أَدَّتْهَا شِفاهُ الاعْتِقادِ، إِلى الأَلْسِنَة وَالأَيْدِي مِنْ حَاضِرٍ وبادٍ، بِإِخْلاَصٍ مِنَ الضَّمائِر، فِي السَّرائِرِ وَالظَّواهِرِ، عَلَى ٱلأَمْنِ وَالأَمَانَةِ والْعَدْلِ والسَّمْعِ والطَّاعَةِ في ٱلْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَٱلْيُسْرِ اقْتِدَاءً بِبَيْعَةِ نَبِيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الرِّضْوَانِيَّة، وَأَخْذاً بِٱلْمَوَاثِيقِ وَٱلْعُهُودِ ٱلأَيْمَانِيَّة، وَعَلَى مَا بُويِعَ عَلَيْهِ إِمامُنَا ٱلْمَهْدِيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَخَلِيفَتَاهُ بَعْدَهُ، حَسَبَ ٱلْوَعْدِ ٱلسَّابِقِ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ﴾، تَلُوحُ ٱلْبَرَكَاتُ مِنْ وُجُوهِ مَسَاعِيهِمْ، وَتَنْثَالُ ٱلْخَيْرَاتُ عَلَيْهِمْ لِخُلُوصِ مُعْتَقَدِهِمْ لَهَا وَتَصَافِيهِمْ، وَكُلَّما مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ لِلْمُبَايَعَةِ تَلاَ عَلَيْهِمْ لِسانُ ٱلإِسْلاَم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْديهِمْ﴾، وَأَقْبَلُوا عَلَى ٱلطَّاعَةِ، وَمُوافقَةِ ٱلْجَمَاعَة، وَرَسَموا ٱلْخُطوط وأَشْهَدُوا ٱللَّهَ عَلَى سَرائرِهِم بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْهَا ﴿وَكَفَى بِٱللَّهِ شَهِيداً﴾ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْه ٱللَّهَ فَسَنُوتِيهِ أَجراً عَظِيماً﴾.

وَذَلِكَ فِي مُسْتَهَلِّ جُمادَى ٱلآخِرَة سَنَةَ ثَمانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ(17).

وقد أورد مؤلّف كنز الكُتّاب بيعتين أخريين في المناسبة نفسها كتب إحداهما عن أهل شريش أيضا فيما يظهر الفقيه الحافظ أبو الحسن علي بن إبراهيم المعروف بابن الفخار الشريشي(18) وهو من تلاميذ مترجمنا ابن لبال. أما البيعة الأخرى

(17) انظر ما كتبناه حول تاريخ بيعة المنصور في تأليفنا : ابن مغاور الشاطبي : 134.

(18) توجد في كنز الكتاب : 42–43، وانظر ترجمة ابن الفخار الشريشي في الذيل والتكملة 5 : 185–186 والمصادر المحال عليها هناك.

فقد كتبها الكاتب أبو بكر محمد بن أخيل الرندي[19]، والبيعتان معاً مؤرّختان كالبيعة الأولى في مستهل جمادى الآخرة سنة ثمانين وخمسمائة.

ثم لا ننسى بعد هذا أن بنى جامع وزراء الخلفاء الموحدين الأوائل وأصحاب النفوذ الواسع إبان عظمة الدولة يرجع أصلهم إلى ساحل مدينة شريش[20]، ولاشك أنّه كان لهم التفات خاص إلى هذه المنطقة التي أنجبتهم.

ويبدو أنّ من مظاهر هذا الالتفات إنزال عبد المومن عدداً من عرب بني هلال «في نواحي إشبيلية ممّا يلي مدينة شريش وأعمالها»[21] وذلك لحماية هذه المنطقة التي ستصبح فيما بعد من الثغور.

وتبدو عناية الموحدين بمدينة شريش أيضا في اختيارهم لولايتها عمالاً أنْجاداً كأبي عمرو يزيد بن أبي خالد[22] الذي كان كاتبا شاعراً نبيلا.

وكانوا يختارون لخطة القضاء بها كذلك قضاة أعلاماً كأبي القاسم أحمد ابن قنترال[23] وأبي الحسن علي ابن قطرال[24] وأبي بكر يحيى بن أحمد السكوني[25] وأبي الحسين بن أبي القاسم ابن المالقي[26]، وهو من بيْت بني المالقي خدام الدولة المعروفين وأبي عبد الله محمد ابن منصور الجنب[27].

وقد نرى تعلّق أهل شريش بدولة الموحدين في تغني بعض شعرائها بأمجادها

---

(19) توجد هذه البيعة أيضا في كنز الكتاب : 43-44، أما كاتبها أبو بكر محمد بن أخيل الرُّنْدي فله ترجمة قصيرة جدّاً في الذيل والتكملة 6 : 110 ويبدو أنه ولد القاضي الكاتب أخيل الرُّنْدي (التكملة : 212 وغيرها).

(20) المعجب : 389، ط. القاهرة 1963.

(21) نفسه : 295.

(22) انظر ترجمته ومصادرها في تحفة القادم : 168-171 وأضف إليها : اختصار القدح : 80 والبيان المعرب، قسم الموحدين : 246-247. ولعل المذكور في هذين المصدرين من أولاده.

(23) الذيل والتكملة 1 : 282.

(24) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 8 : 154-159.

(25) صلة الصلة : 194.

(26) مجموع رسائل مخطوطة (مصورة عن نسخة للأستاذ المنوني).

(27) الذيل والتكملة 8 : 286.

وفرحهم بانتصارها على أعدائها، فلما قُضِي على ثورة أبي قصبة في جزولة سنة 598هـ ابتهج بذلك أهل شريش وقال أحد شعرائها الفحول وهو أحمد بن شَكِيل الصّدفي الذي كان يومئذ في العشرين من عمره[28] قصيدة عصماء أولها :

آللّهُ أَطْفأَ مَا أَذْكَى أبو قَصَبَهْ ... مِنْ حَرْبِهِ وأزالَ السِّحْرَ بالغَلَبَهْ

أَمْرُ آلْخَلِيفَةِ وافاهُ عَلَى عَجَلٍ ... يَدْعوهُ لِلْحَقِّ لَمَّا آغْتَرَّهُ كَذِبَهْ

فَمَنْ أرادَ سُؤالاً عَنْ قَضِيتِهِ ... فجُمْلَةُ آلأمْرِ أَنّ الْحَقّ قَدْ غلَبَهْ

لَقَدْ شَفَى النَّفْسَ أَنْ وَافَى بِهامَتِهِ ... صدر القَناةِ مكان الصَّدْرِ والرَّقَبَهْ

لَمّا آسْتَمَرَّ جِماحاً في ضَلاَلَتِهِ ... عادَتْ عَلَيْهِ لِجاماً تِلْكُمُ الْقَصَبَهْ

كانَتْ عَصَاهُ الَّتي غَرّ آلأنامَ بِها ... لِمَا يُقَرِّب مِنْ نارِ آلْوَغَى حَطَبَهْ[29]

وتبدو عواطف أهل شريش جيّاشة نحو الموحدين فيما صدر عن أبي عمرو ابن غياث وأبي العباس بن شَكيل من مدائح في السيد أبي اسحاق إبراهيم[30]، وذلك بمناسبة تعيينه واليا على اشبيليه في فترة اشتدّت فيها الهجمات على المسلمين ومما جاء في قصيدةٍ لابن غياث قوله :

قُدومُ أَبِي إِسْحاقَ يُمْنٌ ورحمَةٌ
وأمن وفتح يجمع الكُلّ شامِلُهْ

فَلِلّهِ يومٌ قَدْ تجلَّى بِأُفْقِهِ
وَلَيْسَ لَهُ بالأُفْقِ نورٌ يُماثِلُهْ

تَخِذْناهُ عيداً لاَ نرَى الْعِيدَ غيره
أواخِرُهُ مَحْمودةٌ وأوائِلُهْ

فَقُلْ لِذَوِي آلإِلْحادِ مَا كانَ ظنّكُم
بِذِي لَجَبٍ لَجّاتُهُ وَصَوَاهِلُهْ

---

(28) ولد ابن شكيل عام 578هـ وتوفي معتبطا عام 605هـ انظر ترجمته ومصادرها في تحفة القادم : 140-142، ويضاف إليها : أزهار الرياض وكنز الكتاب والذيل والتكملة 8 : 222، 231.

(29) تحفة القادم : 140.

(30) ولي اشبيلية أكثر من مرّة إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن وإبراهيم بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن، ولم أتمكن الآن من تعيين أيهما المقصود في مدائح الشاعرين المذكورين.

إِذَا أَمَّ أَرْضَ الشِّرْكِ تُنْشِدُ أَهْلُهـا :

«صَحا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وأَقْصَرَ بَاطِلُهْ»[31]

إِذَا حَلَّ حِزْبُ ٱللَّهِ يَوْماً بساحتـي

أُصِيبتْ مِنَ ٱلْكُفْرِ ٱلصَّرِيحِ مقاتِلُهْ[32]

وأمّا ابن شكيل فقد قال قصيدتين في الابتهاج بمقدم هذا السيد الذي كان أهْلُ هذه الجهة يأملون فيه الخير الكثير، ويعلّقون عليه الآمال العظام في الدفاع عن حوزتهم، وفي هذا يقول :

إِنَّ ٱلإِمـامَ رآكَ فِـي أُعْمَالِـهِ ... كالبَـدْرِ يَطْلُـعُ لِيْلَـةَ التَّتْـميم

فَرَمَى ظَلاَمَ ٱلظُّلْمِ مِنْكَ بِنَيِّـرٍ ... عَـدْلٍ رَؤُوفٍ بالعِبَـادِ رَحِيم

يَقِـظٍ نِقـابٍ ظنّـه كَيَقِينِـهِ ... إِنَّ ٱلْعُلُـومَ نَتَائِـجُ التَّرْجِيـمِ

بَشِّرْ يَتَامَـى المُسْلِمِيـنَ بِوَالِـدٍ ... مِنْهُ يَحُوطُ ذِمارَ كُلِّ يَتِيـمِ

والمُمْحِلاتِ مِـنَ ٱلبِـلادِ بوابـلٍ ... مِنْ جودِهِ يُحْيِي ٱلأَنَامَ سَجُوم

وَلْتُنْذِر ٱلـرُّومَ ٱلطُّغَاةَ بعـاصِفٍ ... مِنْ بـأسِهِ مِثْل الدَّبُورِ عَـقيم

ظَنِّي بِهِ قَـدْ زَارَهُـمْ مُتَوَشِّحـاً ... بِنجادِ عَضْبِ الشَّفْرَتَيْنِ صَمِيـمِ

فِـي عُصْبَـةِ ٱلتَّوْحِيدِ يَقْدُمُهُـمْ بِأُبّهـة ٱلْجَلاَلَـةِ فِـي حُلى التَّكْـرِيم[33]

ويقول فيه من قصيدة أخرى :

هَذَا الَّذِي هَجَرَ الأَوْطَانَ مُحْتَسِباً ... في طَاعَةِ ٱللَّهِ أَفْنَى ٱلْعُمْرَ إِنْفَاقا

يا فَرْحَةَ ٱلثَّغْرِ بِٱلْمَلْكِ المُؤيد بَلْ ... يا فَرْحَةَ ٱلدِّينِ وَالدُّنْيا بإِسْحاقا

لَمَّا تَجلَّـى رَأَتْـهُ عَيْـن طَاعَتِنـا ... جَهْراً فَأَعْضاؤُنا قَدْ صِرْنَ أَحْداقا

لأَكِنَّما مُقْلَةُ ٱلأَذْفُنْشِ قَدْ شَخَصَتْ ... فَما تُديرِ مِنَ ٱلإِغْراقِ حِمْلاقـا

في قَلْبِهِ مِنْكَ نيرانٌ مُسَعَّـرَةٌ ... تُفْنِي ٱلْجَوانـحَ إِلْهاباً وإِحْراقـا

---

(31) هذا صدر مطلع قصيدة لزهير بن أبي سلمى وعجزه :
وَعُرِّيَ أَفْراسُ الصِّبا وَرَواحِلُهْ

(32) كنز الكتاب : 49-60.

(33) المصدر نفسه : 51-52.

تَرَى ٱلْجَحِيمَ أَتَاهُ قَبْلَ مَهْلَكِهِ   فَإِنْ تَمادَى بِهِ كُفْرٌ فَقَدْ ذَاقَا[34]

وقد كان لشريش نصيب كبير من اهتمام هذا السيد أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب المنصور والي إشبيلية كما يبدو من الرسائل التي كان يوجهها إلى دار الخلافة بمراكش في عهد الخليفة يوسف الثاني الملقب بالمنتصر، جاء في إحدى هذه الرسائل بخصوص تعيين قاض في شريش ما يلي :

«وأعلمتم وصل الله رفعتكم بتعْيين القاضي أَبي الحسن بن الفقيه أبي القاسم ابن المالقي[35] بشريش، والشُّكر على ذلك كلّه مطّرد الوجوب، كثير الاحتفال، فسيح المجال، ووساطتكم الجميلة ــ أدام الله عزتكم ــ مشكورة في جميع الأنحاء، وتمشيتكم الحميدة مذكورة بأجمل الذكر وأحسن الثناء، ومجلكم يشكر تهمّمكم الذي مازال يتعرفه ــ والحمد لله ــ على الولاء، فقد غمره الإحسان بإسعافكم في مطالبه، وقد أوليتموه ما يقصر اللسان عن شكره من مواصلة التهمّم بجانبه، ولا نُكْر فيما فعلتموه من ذلكم، على فضيلة سجاياكم وكرم خِلالكم، فمازلتم أهلا للجميل، ومكانا للشكر الحفيل، بارك الله فيكم وشكركم، وبلغكم في الدارين أملَكم، وضاعف النّعم قِبَلَكُم، ووصل السعادة لكم»[36].

وورد في هذه الرسالة أيضا كلام على تقديم ولد السيد أبي إسحاق على عرب بني رياح وقرة مناف النازلين بأحواز شريش، وهذا نصه : «وورد على مجلكم أدام الله علوكم الكتاب الإمامي الكريم الذي أشرتم إليه بتقديم عبد المقام الإمامي ابن عبده على بني رياح وقرة مناف وإلزامِهِ سُكْنى شريش إلى غير ذلك ممّا تضمّنه الكتاب الكريم من الوصايا المنيرة، والأغراض المحمودة بكل لسان والمشكورة، وذلكم حفظ الله مكانكم مما عوده المَقام الإمامي أيده الله عُبْدَانَهُ من مضاعفة الأنعام وإسباغ برود الإحسان، وتجديد العطف والالتفات والامتنان، على القريب والبعيد والشيب والشبّان، والله يجازي المقام الإمامي جزاء المحسنين

---

(34) نفسه : 53.

(35) انظر ما يتعلق ببني المالقي هؤلاء في الذيل والتكملة 8 : 250، حاشية 281 وكذلك في ص 381.

(36) مجموع رسائل في ملك الأستاذ المنوني ومنه صورة في الخزانة العامة بالرباط.

المُنْعِمين، ويُوزِعُ شكر فضله العظيم وطَوْله المبين، والذي عند مجلّكُمْ من شكر هذه النعم العديدة، والأيادي الجديدة، هو بحر لا تُمتَطى أثباجُه، ولايزالُ واضحاً منهاجُه، وقد عظمت النعمة متوالية من المقام الإمامي شكره الله عن أن يقوم بشكرها الإنسان، ومن الله الجزاء الذي يستحقّه هذا الإحسان، وقد توجه العبد المذكور إلى شريش بعد الوصية المؤكّدة ــ كما أمروا ــ، والله يعين على امتثال الأوامِر، وشكر النِّعَم الهوامِر»[37].

ويبدو أن الحظوة التي أدركتها شريش في عهد الموحدين وقربها من مدينة إشبيلية عاصمة الأندلس يومئذ وكثرة خيراتها ووفرة ثرواتها جعلت منها مدينة مأهولة بالسكّان موسومة بالعمران الذي ظهرت آثاره في الحركة العلمية والأدبية بها.

وقد تحدّث الجغرافيون والرحّالون عمّا شاهدوه من عمران شريش في عهدي المرابطين والموحّدين، فمن ذلك قول الإدريسي : «ومدينة شريش مدينة متوسطة حصينة مسوّرة الجَنَبات، حسنة الجهات، وقد أطافت بها الكروم الكثيرة وأشْجار الزيتون والتين، والحنطة بها ممكنة، وأسعارها موافقة»[38].

ويقول الحجاري وهو مثل الإدريسي يصف المدينة في عهد المرابطين : «إنّ مدينة شريش بنت إشبيلية وواديها ابن واديها، ما أشبه سعدى بسعيد، وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق، لأهلها همم، وظرف في اللباس، وإظهار لِلرَّفاهية، وتخلّق بالآداب، ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً ومعشوقاً، ولها من الفواكه ما يعمّ ويفضل، وممّا اختصت به إحسان الصنْعَة في المجبّنات وطيب جبنها يعين على ذلك، ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبّنات فهو محروم»[39].

---

(37) نفسه.

(38) نزهة المشتاق : 572-573.

(39) نفح الطيب 1 : 184 تحقيق إحسان عباس، وجاء في تاج العروس : «ومما يستدرك عليه : شريش كأمير، من مدن الأندلس، مشهورة، قال مؤرّخو الأندلس : هي بنت إشبيلية، وواديها ابن واديها، منها شارح المقامات الشروح الثلاثة أبو العباس أحمد بن عبد المومن الشريشي وغيره. قاله شيخنا. / قلت : وجمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سجمان ابن أبي بكر الشريشي الأندلسي، ولد بها سنة 601هـ وسمع بها وبالمشرق، ودخل مصر، =

أما ابن سعيد الذي زارها في عهد الموحدين فقد وصفها في المغرب بقوله : «من مدن الأندلس المليحة ظاهراً وباطناً، دخلتها وتفرّجت فيها كثيراً، وهي في نهاية من العمارة وكثرة الأرزاق، ولها رؤساء أغنياء لهم نعم واسعة، ومن متفرّجاتها الجانة وهي على النهر، بهجة المنظر.. ومرج السندسية، ونهر لك، وهو نهر مستحسن، عليه بساتين، ومناظر ملاح، وكأنّه مختص نهر إشبيلية»[40] وتحدث عنها مرة أخرى فقال : «وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة الممصّرة من مثلها، والمثال في ذلك أنّك إذا توجّهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة»[41].

وقد حكى أبو العباس أحمد بن عبد المومن الشريشي ــ وهو من تلاميذ مُتَرْجَمنا ابن لبال ــ حكايةً تدلّ على إعجاب الأندلسيين بمدينة شريش كما تدلّ على تعلّق أهلها بها، قال : «وحدثني الفقيه أبو عبد الله ابن زرقون[42] في بستانه بطريانه[43] أيام قراءتي عليه النوادر والكامل[44]، وكان رحمه الله ذاكراً بالطريقة الأدبية مع تميّزه بالطريقة الفقهية فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات، أنواعٌ من المذاكرات، في فنون أدبيات، فاهتزّ رحمه الله وهش، وأظهر السّروربي ــ وأنا يومئذ غلام ما بقلَ عذاري ــ فقال : لقد علمتُ أن بيني وبينك أخوة، قلت : وكيف ذاك ياسيدي، فقال : إني ولدت ببلدك شريش، فزدت بالحديث غبطةً واستزدت منه، فقال لي : ومع ذلك فثم قصة مستظرفة : إعْلَمْ أني كنت اجتزت بِشَريش قافلاً من العدوة مع الفقيه أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي[45] رحمه

= وأجاز الحافظ الذهبي مروياته توفي سنة 688هـ»./ قلت : أغفل ابن الطيب الفاسي وتلميذه مرتضى الزبيدي ذكر ابن لبّال الشريشي الذي هو أسبق من غيره في الانتساب إلى شريش ولهذا قدّمه ابن سعيد في المغرب وابن دحية في المطرب ويبدو أن دورات الزمان تقلب الميزان.

(40) المغرب 1 : 302-303.

(41) نفح الطيب 1 : 205.

(42) له ترجمة مطولة في الذيل والتكملة 6 : 203-207 وانظر المصادر المحال عليها هناك، ويضاف إليها : المطرب لابن دِحْية : 219 وبغية الملتمس : 70.

(43) طريانة : ضاحية جميلة وصفها ابن سعيد في المغرب 1 : 293 وذكرها ياقوت في المعجم.

(44) يقصد الأمالي لأبي علي القالي والكامل للمبرد وقد اختصرهما حاكي القصّة.

(45) قدم ابن العربي إلى مراكش في أيام المرابطين ثم عند قيام الموحدين في عهد عبد المومن، وعودته من العدوة المشار إليها كانت في عهد المرابطين.

الله، فلما صِرْنا في بطاحها، وبين كرماتها وجنانها، أخذ الفقيه أبو بكر يثني عليها بكلّ لسان، على كثرة ما رأى من البلدان، ويقول : إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة من كثرة الزرع والضرع والزيت والعصير[46] والملح وغير ذلك فقلت له : أعلمت أني ولدت بها، فقال لي أبو بكر، أتقول أنت الآن :

مَسْقِـــــطُ الـــــرَّأْسِ شَرِيسُ

فقلت له مجيزا : وَبِهَـــا كُـــنْتُ أَعِـــيشُ

فقال أبو بكر : بَلْـــدةٌ يوجَــــدُ فيها

فقلت : كُــــلُّ شيءٍ وَيَــــرِيشُ

فقال أبو بكر : وِرْدُهــا مِــنْ سَلْسَبيــلٍ

فقلت : وَصَحَارِيهَــــا عَــــرِيشُ

ثم سرنا في طريقنا على قوافي السّروجية[47] فرددناها شريشية وقطعنا بها الطريق ونحن لا نشعرُ. فكانت أسَرّ عشية رَأيت بمجالسة مثل هذا الفاضل ــ وسنّهُ نيف على الثمانين بسنتين ــ يحدّثني عن ابن العربي وابن عبدون الكاتب ونُظَرائِهما في رياض كلها نزهة على نهر إشبيلية، وهي أمامنا على بهجتها وجمالها مادحاً لي ولبلدي ليدخل علي بذلك مسرّة، نسأل الله تعالى أن يبلّغه غاية السرور في دار البقاء»[48].

ولا نشك في أن مترجمنا ابن لبّال قال شعرا في مدح شريش ووصف طبيعتها الجميلة ولكن لم يصل إلينا منه إلاّ أبيات قالها في أرض شذونة، وهي فيما نفهم كورة شذونة التي تشتمل على شريش، وقد كانت هذه تضاف إلى تلك، فيقال

---

(46) هو في اصطلاح الأندلسيين محصول العنب والتين وغيرهما من الفواكه الصيفية والخريفية.

(47) يشير إلى قصيدة الحريري الواردة في المقامة الثلاثين الصورية والأبيات التي قلّبها ابن العربي وابن زرقون هي :

مسقـــط الـــرأس سروجُ ... وبها كـــنت أمــــوج

بلــــدة يوجـــــد فيها ... كل شيء ويــــــروج

وردهـــا مـــن سلسبيـــل ... وصَحـــارِيها مُـــروج

(48) شرح المقامات للشريشي 3 : 123–124 وورد طرف من هذه الحكاية في ترجمة ابن زرقون في الذيل والتكملة 6 : 203.

شريش شذونة، وهذا المعنى هو الذي يقصده ابن لبّال إذ يقول :

إذا أبصرَ ٱلْمَحْزُونُ أَرْضَ شَذُونَةٍ وَحُسْن مُحَيَّاها أفاقَ من ٱلْحُزْنِ
كـأَنَّ عَلَـى غِيطانِهـا وَمُتونِهـا دَبابيجَ خُضْراً أَحْكَمَتْهَا يَدُ ٱلْمُزْنِ
مَذَانِبُ تَتْرَى فِي مُرُوجٍ كَأَنَّها عِذارٌ بِخَدّي ذِي جَمالٍ وَذِي حُسْنِ[49]

كما وصل إلينا قوله في وصف متنزّه كان يسمى الجانة أو إجّانة وهو :

أيا حَبّذا «إجّانَةٌ» كيفَما اغتدَتْ زمَانَ رَبيعٍ أَوْ زَمانَ عَصِيرِ
مَذانِبُ ماءٍ كَاللُّجَيْنِ عَلَى حَصىً كـدُرٍّ بِـلاَ ثَـقْبٍ أَغَـرَّ نَثيـرِ
ورَمْلٍ إذا ما ابْتَلّ بالْماء عِطْفُهُ غَنِينَا بِـهِ عَـنْ عَنْبَـرٍ وَذَرُورِ
وَتِينٍ كَما قامَتْ عَلَى حَلَماتِها نُهودُ عَذَارَى الزنج فَوْقَ صُدورِ
كَأَنَّ الْقِبابَ ٱلْغُرَّ فِيها عَـرَائِسٌ على سُرُرٍ مفـروشَةٍ بحَريـرِ[50]

وفي هذه «الجانة» أيضا يقول تلميذه أبو عمرو بن غَيّاث :

باكِرِ ٱلْجانَةَ مَعْ رَوْحِ الجِنَـانْ واصْطَبِحْ فِيهَا عَلَى نَقْرِ ٱلْمَثَانْ
حَبّذاها مِنْ عَـرُوسٍ تُجْتَلَـى في بُـرودٍ لَـمْ يَحُكْهُـنّ ٱلْبَنَـانْ
رَقَّمَتْها الشَّمْسُ فِي رَأْدِ الضُّحَى وَكَـأَنَّ الطَّـلّ أَسْلاَكُ ٱلْجُمَـانْ
جَنّـةٌ زيـدت لأَمْـرٍ أَلِفَـاً وَسَلُونِـي إنَّنِـي رَبُّ ٱلْمَعَـانْ
هِـيَ فـالٌ لِلّـذي قَـدْ عَـوّدَتْ مَعْشَرَ ٱلْعُشّاقِ مِنْ إِلْفِ ٱلْحِسَانْ[51]

ولم يكن شعراء شريش وحدهم المعجبين ببلدهم فقد كانت تعجب غيرهم من الشعراء الذين زاروها أو مرّوا بها، ومن هؤلاء الشاعر المعروف بمرج الكحل، وهو معاصر لمترجمنا ابن لبال، وصديق حميم لتلميذه أبي عمرو ابن غياث، وإياه يخاطب متشوقا إليه ومعبّراً عن هواه في شريش :

أَبا عَمْرٍو مَتَى تَـقْضي اللّيـالي بِلُقْياكُـمْ وَهُـنّ قصَصْنَ ريشي

---

(49) كنز الكُتّاب : 165.
(50) شرح المقامات للشريشي 3 : 65.
(51) المغرب 1 : 302–303.

أَبَتْ نفسي هَـوىً إلا شريشاً ويا بُعْدَ ٱلْجزيرةِ مِـنْ شَريشِ[52]

ويقول أيضاً :

أَبا عَمْرٍو وَلِي نَـفَسٌ وَنَـفْسٌ تَهادَى ذا إِلَيْكَ وذِي تَجِـيشُ
وَجَـأْشٌ كلّمـا لاَقَـى بِصَبْـرٍ جُيوشَ هَـوىً أَمَدَّتْهَـا جُيـوشُ
وَقَلْبٌ ضَلَّ عَنِّـي لَسْتُ أَدْرِي أَمَثْـوَاهُ الْجَزيـرَةُ أَمْ شَرِيشُ[53]

وكما يقول المثل العربي : لا تعدم الحسناء ذاماً، فقد وجد من عاب هذه المدينة الجميلة، وتشاءم من اسمها، ومن الغريب أنه كان أحد أبنائها، وأجودَ أطبّائها، وهو أبو بكر محمد بن علي بن رفاعة الشريشي الذي يقول في بلده :

شَرِيشُ مَـــا هِـــيَ إلاَّ تَصْحيـــفُ شَرٌّ تَبَيّـــنْ
فارْحَـــلْ فَدَيْـــتُكَ عَنها إنْ كُـنْتَ مِمّـــنْ تَدَيَّـــنْ
فَلَـــمْ يَسُدْ قَـــطٌّ فيها حُـــرٌّ وَلاَ مَـــنْ تَقَيّـــنْ[54]

وقد وصف ابن الأبّار هذا الشاعر الطبيب بأنه كان أسمر اللون أبرص فهو إذن ممن يعيب غيره والعيب فيه، وصدق المتنبي إذ يقول :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ يجد مُرّاً بـه ٱلْمَـاءَ الـزُّلاَلاَ

ذكرنا فيما سبق أنّ مدينة شريش خلفت مدينة شذونة في المكانة والشهرة فأصبحت لها الصدارة في الكورة، وكثر بها العمران، وظهرت فيها الحركة العلمية، وما لبثت أن أصبحت من أبرز المراكز الثقافية في الأندلس.

ويتبين من تراجم العلماء الذين أنجبتهم مدينة شريش أنهم برعوا على الخصوص في اللغة والأدب والقراءات والتصوف، فقد كانوا يدرسون أمهات الكتب الأدبية مثل الكامل للمبرد والأمالي للقالي وأدب الكاتب لابن قتيبة ولهم اختصارات وشروح لهذه الكتب، وعُنوا عناية خاصة بمقامات الحريري منذ أن حملها إليهم

---

(52) زاد المسافر : 28 والذيل والتكملة 6 : 116، والمقصود بالجزيرة هنا جزيرة شقر بلد ابن مرج الكحل، واسمها اليوم Alcira وقَدْ وَهِمَ محقق الكتاب فذهب إلى أنها الجزيرة الخضراء، ومن المعروف أنها ليست بعيدة كثيرا عن شريش.

(53) الذيل والتكملة 6 : 115-116.

(54) تحفة القادم : 250 والوافي بالوفيات 4 : 158، وتقيَّنَ : صار قَيْناً أي عبداً.

من بغداد عالم يدعى أبا القاسم عيسى ابن جهور[55] الذي رواها مباشرة عن الحريري.

وقد سكن هذا الشيخ مدينة شريش وأقرأ بها المقامات ورواها عنه عدد من أبناء شريش ومنهم صهره أبو بكر يحيى ابن أزهر[56] وصاحبنا ابن لبال وآخرون.

وكان من نتيجة ذلك ظهور خمسة شروح للمقامات وهي شرح ابن لبال وشرح تلميذه أحمد بن داوود الجذامي[57] وشروح تلميذ ابن لبال أيضاً أبي العباس أحمد بن عبد المومن[58]، وهي ثلاثة : كبير ووسيط وصغير.

وتدلّنا شروح هؤلاء الأعلام على أنّ مدينة شريش كانت مركزاً لدراسة المقامات الحريرية في الأندلس، وقد كان لها هذا كما قلنا آنفاً بفضل سكنى أبي القاسم عيسى ابن جهور بها وإقرائِهِ المقامات بجامعها، وابن جهور هذا هو أحد أربعة أندلسيين يروون المقامات عن مؤلفها، والآخرون هم أبو الحجاج يوسف الاندي[59]، وأبو العلاء زُهْر بن عبد الملك ابن زهر الطبيب[60]، وأبو علي الحسن بن علي البطليوسي[61]، ويقول ابن الأبار في ترجمة أبي الحجاج الأندي ما يلي : «وسمع من أبي محمد مقاماته الخمسين سنة أربع وخمسمائة، وكان سماعه وسماع أبي القاسم ابن جهور واحداً وعليهما مدار روايتها»[62] ويظهر مصداق هذا الكلام بتتبع أسانيد المقامات في الأندلس والمغرب، وثمة رواية خامسة رواها بعض الأندلسيين بواسطة أبي الطاهر الخشوعي[63]. ورواية سادسة رواها

(55) الصّلة : 416 وصلة الصلة : 47 وبغية الملتمس : 389.
(56) ترجمته في التكملة رقم 2052 وصلة الصلة : 185.
(57) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 1 : 115.
(58) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 1 : 268–270.
(59) ترجمته في التكملة رقم 2076 وصلة الصّلة : 206.
(60) التكملة : 334.
(61) ترجمته في التكملة : 260.
(62) التكملة (القسم المخطوط) والذيل والتكملة 1 : 416.
(63) انظر فهرست ابن خير (الفهرس) والتكملة (الفهرس).

بعضهم عن ولد الحريري[64].

ويمكن القول بعد هذا بأن المقامات انتشرت في جهات من الأندلس والمغرب بفضل رواتها وشراحها من علماء شريش، كأبي بكر بن أزهر الشريشي الذي حدث بها عن صهره ابن جهور نزيل شريش المذكور آنفا وأبي بكر بن مالك الشريشي[65] راوي المقامات عن ابن جهور أيضاً، وكذلك الذين رووها عن مترجمنا ابن لبّال، وأبي جعفر أحمد بن داود الجذامي وأبي العباس أحمد بن عبد المومن الشريشي.

وقد كان لهذا الأخير تأثير كبير في نشر المقامات في البيئات المغربية وذلك من خلال شرحه المطوّل المهدى إلى الخليفة الناصر الموحدي والمؤلف برسمه[66]، وكذلك بواسطة شرحه المختصر الذي ألّفه بناء على رغبة طلبة سجلماسة التي عاش فيها[67] وقد تحدّث في شرحه المطول عن بعض عوائدها[68].

ومن المعروف أن هذه العناية الكبيرة بتدارس مقامات الحريري قد أثمرت عدداً مهمّاً من المقامات التي أنشئت على منوالها في الأندلس والمغرب[69].

ولعل تأثيرها سرى فيما بعد إلى الأدب الاسباني حيث يلاحظ شبه عظيم بين ما يسمى في هذا الأدب La novela Picaresca وبين المقامات، وممّا يلفت النظر أن قسما مهمّاً من هذا الأدب ظهر بين العاملين في مضارب الصيد على ساحل شذونة وشريش[70] حيث كان للمقامات كما رأينا شأنٌ كَبير.

---

(64) انظر مقدمة الشرح الوجيز للشريشي (مخطوط).

(65) التكملة : 551، ومن شرّاح المقامات أيضا التادلي وابن ميمون العبدري.

(66) انظر ديباجة شرحه الكبير.

(67) حُقّق هذا الشرح بإشرافي ويوجد مرقونا بخزانة كلية الآداب بالرباط.

(68) انظر ج 2 ص 45 وص 153 وج 4 ص 111 ولنا بحث في الموضوع.

(69) يرد ذكرها في كتب التراجم الأندلسية، وانظر ما كتبه حولها الأستاذ إحسان عباس والأستاذ فرناندو دي لاكرانخا، وانظر أيضا التعريف بعياض : 109 وبغية الوعاة 2 : 363.

(70) راجع خُصوصاً :

La Ilustre Fregona de CERVANTES (Nouvelas ejemplares, éd. F. Rodriguez Marin, Madrid, 1914, 1, P. 224, Note 14).

لم تكن المقامات ــ التي أسهم ابن لبال في شرحها ونشرها بحظ وافر ــ هي عنصر الاشعاع الوحيد لمدينة شريش فقد كان لها إشعاع آخر يتمثل فيمن أنجبت من المقرئين ويعتبر ابن لبّال أيضاً منهم، ولذلك ترجم به ابن الجزري في غاية النهاية[71]، فقد قرأ القراءات السبع على أبي الحسن شريح الاشبيلي شيخ القراء في وقته، وأقرأها في بلده شريش وأجاز عدداً من القراء.

ومن كبار المقرئين الشريشيين أبو الحسن علي بن هشام[72] معاصر ابن لبال وتلميذه، تفرغ للقراءات وأخذها عن أهلها في المشرق وبلغ فيها مبلغا لم يكن يجاريه فيه أحد أو يدانيه، وأبو الحسن علي بن أحمد السّماتي الشريشي وأخوه أبو عبد الله محمد بن أحمد السُّماتي الشريشي[73].

ولست هنا بصدد تتبّع مقرئيْ شريش وسرد أسمائهم، ولكنّي سأكتفي بذكر آخر هؤلاء المقرئين الشريشيين وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأموي الشريشي المشهور بالخراز الذي نزح فيما يبدو إلى فاس بعد خروج المسلمين من شريش سنة 665هـ وقد أسس بأراجيزه وتآليفه مدرسة في رسم القرآن وضبطه ظل الاعتماد عليها في المغرب قرونا عديدة وأصْبحَ رجزه المعروف بمورد الظمآن عمدة القراء في الأزمنة الأخيرة ويتجلى ذلك من كثرة ما كتب حوله في مختلف العصور، وأحصى منها الأستاذ المقرىء حميتو 95 عملاً بين شروح وحواش وتعليقات وأراجيز[74]، وأشير في الأخير إلى أن اشتهار الشريشيين بالقراءات جعل ملوك بني نصر يختارون منهم مؤدِّبين لأولادهم[75].

وثمة أخيراً ميدان آخر كان لشريش فيه نصيب ملحوظ ألا وهو التصوّف، فقد اشتهر بساحلها رابطة روطة التي كان يزورها أهل الأندلس قاطبة في كل سنة وهي رابطة معظمة، وموضع رباط، ومقرّ للصالحين يقصد من الأقطار،

(71) غاية النهاية 1 : 551.

(72) الذيل والتكملة 5 : 154.

(73) انظر التعريف بهما في التكملة رقم 2350 والذيل والتكملة 5 : 153، 588 وصلة الصلة : 124 وقال ابن عبد الملك في الثاني : «وكان خاتمة المُقْرئين المجوّدين».

(74) قراءة الامام نافع عند المغاربة (أطروحة مرقونة) من ص 1282 إلى ص 1360.

(75) نفح الطيب 7 : 108.

وللفقيه عبد الملك بن حبيب في فضلها تأليف كبير[76]، ويحدثنا أبو العباس أحمد ابن عبد المومن الشريشي في شرحه الكبير للمقامات عن صوفي شريشي ذهب إلى المشرق ولقي الإمام الغزالي وصحبه ثم رجع إلى بلده، قال : «وكان بشريش رجل من أهل الدين والورع وحج في أيام أبي حامدٍ وصحبه ففاتت صلاة الصبح يوما أحد أصحابه فلامه على ذلك فاعتذر له صاحبه فلم يعذره، ثمّ قال له على معنى الترغيب : كملت لي اليوم عشرون سنة ما فاتتني صلاة الصبح في جماعة، فلما كان في اليوم الثاني أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعة واحدة فلما لقيه صاحبه بعد الصلاة قال : هذا كما رايت، وإنما ذكرت عملك على معنى التبصرة والإرشاد، فلو ذكرته على غير ذلك لفاتتك الثانية»[77].

وحدثنا أيضا في موضع آخر من شرحه عن صوفي آخر في شريش فقال : «ومما يستطرف من حديث العطاس أن صوفيا في بلدنا كان حافظا للشعر فلا يمر في مجلسه معنى إلاّ وينشد عليه شعراً فاتفق أن عطس رجل بمحضره فشمّته الحاضرون فدعا لَهم فرأى الصّوفي أنّهُ إن شمّته قطع إنشاده بما لا يشاكله وإن لم يشمته كان تقصيراً في البر، فأصبح راغبا للطلبة أن ينظم له أحدهم هذا المعنى، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن أبي محمّد[78] :

يَا عَاطِساً يَرْحَمُكَ ٱللَّهُ إنْ أَعْلَنْتَ بِٱلْحَمْدِ عَلَى عَطْسَتِكْ

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَغْفِرْ لَنَا وَأَخْلِصِ النِّيَةَ فِي دَعْوَتِكْ

وَقُلْ لَهُ يَا سَيِّدِي رَغْبَتِي حَضُور هَذَا ٱلْجَمْعِ فِي حَضْرَتِكْ

وَأَنْتَ يَا رَبَّ النَّدَى والنَّدِي بارك رَبُّ النَّاس في لَيْلَتِكْ

فَإنْ يكُنْ مِنْكَ لَنَا دَعْوة فأَنْتَ محمودٌ عَلَى دَعْوتِكْ

وهذا الوزير الشريف إنّما يصرف شعره في أوصاف الغزلان ومخاطبات الإخوان»[79].

---

(76) الزهري : 90 والروض المعطار : 340.

(77) شرح المقامات 3 : 142.

(78) هو أبو عمرو ابن غياث الشريشي، وقد تقدم ذكر مصادر ترجمته.

(79) شرح المقامات للشريشي 2 : 191 ونفح الطيب 3 : 445.

ومن أهل التصوف الذين ينتسبون إلى مدينة شريش أبو علي الشريشي الملقب بالبكّاء، لقب كذلك لأنه كان شديد الخوف من الله تعالى لا تكاد ترقأ له دمعة، وقد عرف به التادلي في التشوف ونقل أنه جال في بلاد المشرق وحج نحو عشرين حجة وقد انتقل من شريش إلى مراكش ومنها إلى سلا حيث توفي في القرن السادس الهجري(80).

وإلى شريش أيضا ينتسب تاج الدين الشريشي وهو كسابقه تجول في البلدان لطلب العلم ولقاء أهل التصوف، وقد ألّف في التصوّف ونظم فيهِ قصيدة رائية تعرف بالشريشية ضمنها كتاب منشور الخلاف لعبد الكريم القشيري، ثمّ اشتهر أمرها وطار ذكرها وأصبحت في المغرب على الخصوص من المتون التي تحفظ وتشرح، وممن شرحها أبو العباس أحمد بن القاسم الصومعي التادلي وأبو العباس أحمد بن أبي المحاسن الفاسي(81).

وإلى شريش ينتسب كذلك جمال الدين الشريشي ولد بشريش سنة 601هـ وهاجر إلى المشرق وولي مشيخة الصخرة بِحَرم القدس الشريف ومشيخة الرباط الناصري بسفح قاسيون وتوفي به سنة 685هـ وكان من أكابر الصالحين المتورّعين(82).

هذا بعض ما يتعلق بشريش من الناحية العلمية أما من الناحية الحضارية فقد اشتهرت شريش في العهد الإسلامي بالمجبّنات مثلما هي مشهورة اليوم بالشراب الذي يحمل اسمها، وكان الأندلسيون يقولون كما تقدم : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبّنات فهو محروم، فما هي هذه المجبّنات ؟

لقد فسّرها المقري في نفح الطيب بقوله : «والمجبّنات نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها وتقلى بالزّيت الطيب»(83) وهذا تفسير يقرّب معنى الكلمة

---

(80) التشوف : 181 والإعلام 1 : 326-328.

(81) ترجمته ومصادرها في الاعلام 2 : 143 وقد خصّه محمد بن قاسم البادسي بترجمة مستقلة توجد في الخزانة العامة بالرباط تحت عدد 1419د، وراجع أيضا الذيل والتكملة 1 : 388 حاشية رقم 1، وآثار أبي زيد الفازازي : 130-133 تقديم وتحقيق الهرامة .

(82) نفح الطيب 2 : 627.

(83) نفح الطيب 1 : 184.

للمشارقة ولو شئنا نحن أن نقرّب معْناها للمغاربة لقلنا إنها تشبه الاسفنج غير أن الاسفنج لا يضاف الجبن إلى عجينه.

والأصل في المجبّنات أن تقام على أساس نسب محددة من الجبن والدقيق والزيت، ولابد من أن يكون الجبن مزيجا من البقري والغنمي «فيكون من البقري قدر الربع في ثلاثة أرباع من جبن الغنم»[84] وقد ذكر السقطي مثالا لاقامة المجبنات يتركب من ربع جبن ونصف ربع دقيق وربع الربع من الزيت[85].

وذكر مؤلف كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس كيفية عملها بتفصيل ووصف أنواعها كالمجبّنة بالبيض والمجبّنة المثلّثة والمجبّنة بالسميد والمجبّنة الفرنية[86].

وليست كتب الطبيخ الأندلسي وحدها التي تذكر المجبّنات فقد ورد ذكرها في الأمثال والألغاز والأشعار والمقامات، فمن أمثالهم التي تضرب في السّلعة البائرة قولهم : مجبّنة الظهر : خرج نارها وقل طلابها[87]، وذلك لأن المجبّنة كانت تؤكل ساخنة في الصباح الباكر، وهذا ما يدلّ عليه بوضوح قول الأستاذ الأديب الاشبيلي أبي الحسن الدبّاج في المجبّنات :

أَحْلَى مواقِعِها إذا قَرَّبْتَهَا ... وَبُخَارُها فَوْقَ الْمَوائِدِ سَامِي
إنْ أُحْرِقَتْ لَمْساً فَإنَّ أُوارَهَا ... فِي دَاخِلِ الأَحْشَاءِ بَرْدُ سَلاَمِ[88]

وضربوا المثل بجمال منظرها فقالوا : نظر المجبنة أخير من أكلها[89].

وتذكر المصادر أنهم كانوا يستعملون المجبّنات في بعض المُناسبات كحفلات الأعراس والختان والنزه التي كان يخرج إليها الأساتذة مع طلبتهم وكانوا يتهادون بها[90]، وقد وُلع بعض الشعراء من الفقهاء والمؤدّبين بالقول فيها فوصفوا

---

(84) كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس : 185.
(85) آداب الحسبة : 31.
(86) كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس : 185-187.
(87) أمثال العوام في الأندلس، القسم الثاني، رقم 1491.
(88) المغرب 1 : 261 واختصار القِدْح المعَلَّى : 156 ونفح الطيب.
(89) أمثال العوام في الأندلس، القسم الثاني، رقم 116.
(90) اختصار القدم المعَلّى : 10، 156.

استدارتها وشبّهوها في ذلك بالقمر كقول ابن مطرّف الغرناطي :

وَكَـمْ مُجبّنـةٍ هـامَ الْفُـؤَادُ بِهـا
قِدْماً وصورَتُها مِـنْ أَحْسَنِ الصُّوَرِ
كأَنَّهَـا البَـدْرُ في تَدْوِيرِهَـا فَـإِذَا
شُقّت عَلَى النِّصْفِ كانَتْ شُقّة الْقَمَرِ[91]

وقول ابن أبي القاسم الشاطبي :

قَـوْراءُ وارسة الْجِلْبَابِ هِـمْتُ بِهَـا
فَقيـلَ صِفْهَـا وَمَثِّلْهَـا كَمَـا يَـجِبُ
فَقُلْتُ وَالشَّوْقُ يَطْوِي نَحْوَهَا رحلا :
كأَنَّهَا الشَّمْسُ فيهَا الْبَدْرُ مُحْتَـجِبُ[92]

وشبهوها أيضا بالشمس في توهّجها كقول الرفّاء المرسي :

إِذَا لاَحَتْ بُدُوراً فِي الْمَقَالِـي تـراءَتْ لِلْعُيُـونِ بِهَـا شمُـوسا[93]

وشبهوها بالْحُبْلَى في انتفاخها وولدوا من ذلك معاني غريبة كقول الرفاء المرسي أيضا :

شُغِفْتُ بِـحُبِّ أَبْكَـارٍ حُبَالَـى وَوُدِّي لَوْ بَنَيْتُ بِهَا عَـرُوسا[94]

وقول ابن الأبار :

حَوامِـلُ وَهْـيَ أَبْكَـارٌ عَـذَارَى تُزَفّ عَلَى ٱلأَكُفّ مَعَ ٱلْبُكُورِ[95]

ومن أطول ما ورد في وصفها قول ابن قادم القرطبي :

ثَوَتْ فِي النَّارِ وَهْيَ مِن الْجِنانِ فجـاءَتْ وَرْدَةً مِثْـلَ الدّهـانِ

---

(91) المقتضب من تحفة القادم : 98 وتحفة القادم : 44 وفيهما : وكم محبّبةٍ، وهو تصحيف، إلاّ إذا كان البيتان قد قيلا على سبيل الألغاز.

(92) أمثال العوام في الأندلس، القسم الثاني : 32.

(93) المقتضب من تحفة القادم : 158.

(94) نفسه.

(95) المقتضب من تحفة القادم : 158.

مُجَبَّنَـــــةٌ مُحَبَّبَـــــةٌ إلَيْنَـــــا يُشجّع ذِكْرُها قَـلْبَ الْجَبَـانِ
لِفَــرْطِ لُدونَــةٍ فيها وَلِيــنٍ تكادُ تَذوبُ من لَمْسِ ٱلْبَنـانِ
تُنـاوِلُ نَفْسَها ٱلأَفْـواه طوعـاً وَإِنْ هِيَ لم تَناوَلْهـا ٱلْيَـدانِ
لَها صَخَبٌ إذَا قُلِيَتْ وَقَلْبِـي لَـهُ صَخَبٌ عَلَيْهَـا غَيْـرُ وَان
ظَلَمْتُ فَعِبْتُها مِنْ غَيْرِ جُـرْمٍ بِكَثْرَةِ جُبْنِهَا فَكَوَتْ لِسَانِـي
وتُخْفِي باطِناً كالقطْـنِ لونـاً وَتُبْـدي ظاهِـراً كالأَرْجُـوانِ
غَبَـنْتُ مُواكِلِـي فِيها اقْتِسامـاً فَوَاحِـدَةٌ لَـهُ وَلِـيَ اثْنَتَـانِ
دَعـاني حيـنَ احضرني إلَيْهـا فَمَا أَدْرِي أَبِاسْمِي أَمْ كَنَانِي[96]

وقول الإمام السُّهيلي :

شَغَفَ ٱلْفـؤادَ نواعـمٌ أَبْكَـار بَرَدَتْ فُؤَادَ الصَّبِّ وَهْيَ حِرارُ
أَذْكَى مِنِ ٱلْمِسْكِ ٱلْفَتيقِ لِناشِقٍ وَأَلَذُّ مِنْ صَهْباءَ حِيـنَ تُـدارُ
صَفَتِ ٱلْبَوَاطِنُ والظَّواهِرُ مثلُهـا لَكِـنْ حَكَتْ أَلْوانَهَا ٱلأَزْهـارُ
فَكَأَنَّمـا صافِـي ٱللُّجَيْـنِ قُلوبُهَـا وكأنَّمـــا أَلْوانُهُـــنّ نُضارُ
عَجَبٌ لَها وَهْي النَّعيمُ تَصوغُها نارٌ، وأَيْنَ مِنَ النَّعيـمِ ٱلنَّـارُ[97]

وقول القاضي أبي عمران ابن المُناصف :

وَسفّاجيـنَ تَحْسَبهُـمْ مُلوكـاً إذا صَعِدوا مَنَابِرَهُـمْ جُلـوسا
وقَـد ظَفِـروا بِصَنْعَـةِ كَيْمِيـاءٍ ولَيْسَ تَعِيبُ صَنْعَتُهـا الرَّئـيسا
أَذابُـوا مِـنْ عَجينِهِـمُ لُجَيْنـاً فَصَيَّـرَهُ اللَّظـى تِبْـراً نَفِـيسا
وَصَاغـوا لِلَّهـاة مُجبّنـاتٍ تَكَـادُ تُعيـدُ لِلْمَوْتـى النُّفُـوسا
تَعُودُ خُدودُهُـنّ ٱلْبِيضُ حُمْـراً كَوَجْنَةِ مَنْ يَعَلّ الْخَنْـدَريسا
تَلُـوحُ عَلَـى أَكُفِّهِـمُ بُـدوراً وتُطْلِعُهـا طَوَاجِنُهُـمْ شُمـوسا
كَـأَنَّ شُخوصهـا إذْ قابَلَتْنـا وجوهٌ لا تَـرَى فيها عُبـوسا
حَشَوْا جُبْنـاً بِـواطنها وَرَقّت ظَواهِرُهـا فَـرَاقَ لَهَـا لَبـوسا

---

(96) الذيل والتكملة 1 : 451.

(97) المطرب : 237.

جَلَوْهــا فِضَّةً تُزْهَــى بِتِبْــرٍ مُذَهّبَة كَمَـا تَجْلُـو ٱلْعَــرُوسا
تَــرَى أَيْدِيهِــمُ أَعْنَــاقَ طَير وَأَنْمُلها إِذَا اجْتَمَــعَتْ رُؤُوسا
وَتَسمَعُ في حُلُوقِ ٱلْقَوْمِ مِنْهَا اذا انْدَرَجَتْ بِهَا أَبداً حَسِيسا

وقول ابن الأبار البَلَنْسي :

بنَـفْسِي مُثْلِجـاتٌ لِـلصّدور لَهَا سِمتانِ مِنْ نـارٍ ونُـور
بَياضُ ٱلصُّبح ما تنشقّ عَنْـه وفَـوْقَ أديمِها صُهْبُ ٱلْخُمـورِ
كَبَرْد الطّلِّ حِين تُذاقُ طَعمـاً وفي أَحْشائِهـا وَهَـجُ الْحَـرُورِ
لَهَـا حـالانِ بَيْنَ فَمٍ وَكَـفٍّ إِذَا وَافَـتْكَ رائِقَـة ٱلسُّفُـورِ
فَتَغْـرُبُ كالأَهِلّـةِ في لَهَــاةٍ وتطلع فِـي يَميـنٍ كالْبُـدُورِ[98]

وبعض الأشعار التي قيلت في المجبّنات تشبه أن تكون ألغازاً كقول القاضي ابن الحاج البلفيقي فيها :

ومصفـرّة الخَدّيـن مَطْويّـة الْـحَشَا
على الجُبْنِ والمُصْفَرُّ يُؤذنُ بالْخَوْفِ
لَها بَهْجَةٌ كَـالشَّمْسِ عنـدَ طلوعِهـا
وَلَكِنّها في الحينِ تَغْرُبُ في الْجَوْفِ[99]

وقد وردت أَلْغازٌ في المجَبّنات، فمنها قول ابن سعيد مستهديا :

أخا الْجودِ قَدْ طالَ شَوْقِي إِلَى شُمُــوسٍ بواطِنُهــا مُقْمِــرَهْ
تَجيءُ مَـعَ الْـوَرْدِ فِـي فَصْلِـهِ وأوجههــا للمُنَــى مُسْفِــرَهْ
وَتَصْحيفُهــا يقــتضي حُبّهــا وبـالضّدّ يَـقْضي لِمَـنْ غَيّـره
وأَكْثَـرُ وَجْـدِي بِهَـا عِنْدَمَـا تُـعَضّ فَـتَضْحَكُ مستـبشِرَهْ[100]

ومنها قول ابن الحاج النميري : «ماشيءٌ يشتَهَى، يميلُ إليه الأخْرَقُ وذُو النُّهَى، مؤنّثٌ مفتوحُ ٱلْوَسَط، رَابي المَجَسّة وربّما انبسَط، في لَوْنه احْمِرار، وَلا يَطيبُ إلاّ وَفيهِ حَرارةُ النَّار، يَلْتَذّ به أخو الظّرْف، وَيَجْعَلُهُ في الظّرْف، ظاهرُه مَرْموق

(98) المقتضب من تحفة القادم : 158.
(99) المرقبة العليا : 166.
(100) اختصار القدح المُعَلّى : 10.

بالطَّرْف، وداخِلُه مَسْتورٌ لا يَصْلُح إلاّ بِعَرْكِ الطَّرف، وللعيال فيه جماع، وفي ذَوْقِ عُسَيلته الْمُفارَقة والْحَمْلُ عَلَى الارتجاع، كثيراً ما يجمع الإخوان، ويَسْتعمله الْعَروس وصاحِبُ الْخِتان، غير أنه وإنْ بلغَ في الحسن أكْمَلَه، يغري بالجُبْن من اسْتَعْمله، يُمْتَحَنُ بالتَّصْحيف فتَظْهَرُ مِحْنَتُه، ويبْحَث عَنْ سِره فيه فتُعْلِيهِ مَحَبَّته، وَقَدْ قَرّبْتُ مَا أَلْغَزْتُ، فَأَبِنْهُ وَلَيْسَ كَمَا ظَنَنت»[102].

ومن الطبيعي أن تكون المجبّنات من موضوعات المقامات لأن الأصل في هذه هو تصوير أهل الكدية والطمع، وقد وجدنا مقامةً فيها لكاتبٍ هزلي من معاصري مترجمنا ابن لبال، وهو أبو عمر ابن حفصون، فقد كتب مقامة وجّهها إلى أحد سادة الموحّدين في اشبيلية يطلب منْهُ أن ينفحه بما يشتري به المجبنات وهو يصف سوقاً من أسواق المطاعم في إشبيلية ثم يتخلّص إلى وصف المجبّنات شعراً ونثراً قال :

«فدَخَلْتُ سوقاً قَدْ صُفِّفَتْ أُطباقُه، وأشرَقَتْ بنجوم المآكِلِ آفاقُه، وتحلّتْ بأَبْهَى مِن النّهود لِيدِ القاطف، وأشهَى من الرِّيقِ البَرُودِ لِفَمِ الرَّاشف، ولحظتُ خِلالَها ما تودّ السّماءُ لو طلَعَتْ بها شَمْسا، والأَقْلامُ لَوْ مُنحَتْها طِرْسا، كأنّها مرآةٌ يَسْتَغْرِقُ شُخوصَ الوَرَى ماؤُها، وَيُغْشِي العيونَ ضِياؤُها، فَحينَ زَهَتْ عَلَيَّ بإعْجابِها، وَقَدْ شَغَفَتْ بِبَياضِها وحُمْرَةِ جِلْبابِها، سَأَلْتُها عَنِ انْتِسابِها، فَقالَتْ : وَيْحَكَ ! أَوَ مَا تَعْرِفُنِي ؟ أَنَا مُنْتَهَى الآمالِ وَالمُنَى، وَشَقِيقَةُ الشَّمْسِ فِي السَّناءِ وَالسَّنَى، قَسَماً لَقَدْ خَضَعَتْ لِي رِقابُ الأُمَمِ شَوْقاً وَحُبّاً، وَعَنَتْ لِي وُجُوه الأَنَامِ شَرْقاً وَغَرْباً :

أنا أَحْلَى منَ الوِصالِ وأَشْهَى منه للمُذْنِف الكئيب المَشُوق
صيغَ جِسْمِي مِنْ جَوْهَرٍ فكستْهُ راحةُ الحُسْنِ حُلّةً مِن عقيقِ

أَنا الَّتي أَشْفي مِن الْجَوَى، وَأَحْرِقُ بِشِهابِي عِفْريتَ الطَّوى، وَأُعيدُ ذابلَ النّفوسِ يانعاً بَعْدَمَا ذَوَى :

---

(101) الذيل والتكملة 8 : 385.

(102) مذكرات ابن الحاج : 11–12 رسالة مرقونة للأستاذ دي بريمار.

أَنَا ٱلشَّمْسُ ٱلَّتِي يَجْلُو سَناهـا دُجَـى السُّغَبِ المبَرِّح بالْقُلُـوب
أنـا أَشْهَـى جَنـاً وأَلَـذّ طَعْمـاً إِلَى الْمُشْتَاقِ مِنْ وَصْلِ الحبيب

أَنا المُجبّنة ! فَقُلْتُ : أُوّاه ! أَنْتِ وَٱللَّهِ حَبِيبَةُ النَّفْسِ، لَوْلاَ أَنِّي [لاَ أَشْتَمِلُ] عَلَى فَلْسٍ، فَقَالَتْ : إذن والله لَسْتَ من حالِي، فَلا تَطمَعْ في خِطبة أمثالي، إلاّ إِنْ اسْتَنْصَرْت بِفاضِلٍ معْوانٍ، وَعَارِضٍ هَتّان، وَكَهْفٍ مانعٍ مِنْ طَوَارِقِ الحدَثان، مثْل سَيِّدنا وَمَوْلاَنا أَبِي عَبْد الرّحمن»[103].

وعند ذلك توجّه إلى الأمير يمدحه ويسأله «فأعطاه ديناراً ليشتري به ما ذكر» فكتب يقول :

«لمّا وَصَلَ ٱلْمُنيرُ ٱلْغُرّة، الْمُشْرِقُ الأَسِرّة، ورَأَتْ أَسْطَارَ صَفَحاتِهِ، وَنَشَقَتْ رَيّا نَفَحاتِهِ، وَصَلَتْ بَعْدَمَا هَجَرَتْ، وَأَقَرَّتْ بِالذَّنْبِ واسْتَغْفَرَتْ، وَتَلَتْ عَلَيّ : ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين﴾ فَتَلَوْتُ عَلَيْهَا : ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِين﴾ وَلَمّا رَأَتْ مِنِّي دَهْشَةَ مَنْ مَلَكَ مَا لَمْ يَكنْ مَلَكَ، ﴿غَلّقَتِ ٱلأَبْوَابَ وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ﴾، فَهَزَزْتُ كَتِفِي، وَنَظَرْتُ مِنَ ٱلزَّهْوِ فِي عِطْفِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا فَارْتَشَفْتُ مِنْهَا فِي ٱلْغَلَس، أَعْذَبَ مِنَ ٱللَّعَس، وَبَرّدْتُ مِنْهَا ٱلظَّمَا، بِأَبْرَدَ مِنَ ٱللَّمَا، فَلِلَّهِ هِيَ ! فَمَا أَطْيَبَ مَرَاشِفَها، وَأَرْطَبَ مَعَاطِفَها»[104].

لَقَدْ وقفنا هذه الوقفة عند المجبّنات لأنها كانت علامة مدينة شريش التي يعتبر مُتَرْجَمنا ابن لبال أنبه أعلامها على الإطلاق[105].

ثم إن المجبّنة أو الاسفنج كانت من أبرز معالم الحياة الاجتماعية في حواضر الغرب الإسلامي فقد كان في كل حي سفّاج أو أكثر، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يشترون ما يفطرون به من السفّاج، ومايزال الحال هكذا إلى اليوم في الأحياء البلدية من المدن المغربية.

---

(103) هو ولد السيد أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن الذي كان واليا على إشبيلية.

(104) العطاء الجزيل : 14–15 مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط.

(105) نعت ابن دحية ابنَ لُبّال بأنه عين مصره.

ونعود بعد هذا إلى تتمة الحديث عن شريش التي عاش فيها صاحبنا وتوفي بها سنة 582هـ وأصبح قبره فيها مزوراً، وظل كذلك إلى نهاية العهد الإسلامي الذي استمرّ فيها بعد التاريخ المذكور حوالي سبعين عاماً.

ويبدو أن أهل شريش حافظوا على ولائهم للموحدين الذين عملوا الكثير من أجل مدينتهم، فلما دالت دولة هؤلاء دخلوا في طاعة ابن هود أياما معدودات وأصبحوا بعد ذلك تابعين لمملكة غرناطة فترة قصيرة[106]، ثم تولوا أمرهم بأنفسهم ولم يدخلوا في الصلح المعقود بين ابن الأحمر وملك قشتالة سنة 643هـ[107] لكنهم اتفقوا مع القشتاليين على أن يؤدوا إليهم مالاً معلوماً في العام وسمحوا لهم بمساكنتهم[108] ويبدو أن أهل شريش كانوا في سنة 658هـ مايزالون متماسكين، فقد اسهموا خلال هذا العام في افتداء 380 شخصاً من أهل سلا إثر نكبة هذه المدينة في السنة المذكورة[109] وقد حاول القشتاليون في سنة 659هـ إخراج المسلمين ولكن هؤلاء استعانوا عليهم بعسكر من بني مرين وأخرجوا النصارى الذين كانوا ساكنين معهم[110]، وظلّوا كذلك إلى أن اضطروا إلى التخلي عنها سنة 665هـ[111] فأخذها النصارى بصفة نهائية أما المسلمون من أهلها فمنهم من بقي فيها وتدجّن ثم تنصّر[112]، ومنهم من خرج منها مهاجرا إلى دار الإسلام في مملكة غرناطة والمغرب ومصر والشام والعراق[113].

ويقول مؤرّخوهم إن استيلاءهم عليها بصفة نهائية كان في سنة 1264م، ويفهم من كلام ابن عذارى أن محمد الشيخ النصري سلّمها لألفونسو العاشر في صفقة صلح بين الطرفين، قال : «وهذا شيء تعافه القلوب والأسماع،

---

(106) نهاية الأندلس : 39.

(107) البيان المعرب، قسم الموحدين : 367.

(108) نفسه : 431.

(109) نفسه : 422.

(110) نفسه : 425.

(111) نفسه.

(112) أشار إلى هذا أصحاب الرحلات السفارية كما تقدم.

(113) وصل بعضهم إلى مصر والشام والعراق كما تدل على ذلك كتب التراجم.

وتضطرب لفظاعته الأصقاع»[114].

وقد حاصرها بعد هذا بنو مرين مراراً في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق وضيّقوا عليها كثيرا و لم يرفع السلطان عنها الحصار إلا بشروط، وذلك بعد سفارة عبد الحق الترجمان ووساطة الأمير يوسف وقدوم سانشو ملك قشتالة بنفسه على السلطان.

ويروي عبد الحق الترجمان أن سانشو وحاشيته كانوا خائفين على أنفسهم خلال هذا القدوم، وذلك على رغم الأمان الذي التزم به السفير وأقسم عليه، ولكن سانشو ــ فيما حكاه هذا السفير ــ لما وصل إلى مدينة شريش ازداد تخوّفه وطلب أن يجتمع بالأمير يوسف ولي العهد كي يؤمّنه ويسير معه إلى والده، قال مؤلف روض القرطاس : «فلمّا سمع ذلك عبد الحق خاف أن يكون قد دبّر مكيدة على المسلمين فقال له : نعم، تصل إليه، ولكنه ملك كبير وسلطان إذا وصل إليك في جيشه وأنت في بلدٍ من بلادك وتطلب منه أن يشفع لك عند أبيه وجب عليك أن تخرج عن ذلك البلد، فإن المملكة توجب ذلك، ولا يمكنك إلاّ الخروج له عن شريش إذا دخلها، وإن لم تفعل كنت مقصّراً في حقه وخافضا من قدره، فأعمل رأيك في أي الأمرين وأما وصوله إليك فأنا الكفيل به.

فلما سمع سانشو مقالة عبد الحق قال : أنا أخرج لِلقائه، فألقاه خارج المدينة، فسار عبد الحق إلى الأمير يوسف فعرّفه بخبر سانشو واستجارته به وميله إلى جانبه وأعلمه برضاه بعهده وأنه يركب في ذمته حتى يصل به لأمير المسلمين، فأجابه الأمير يعقوب إلى ذلك وأسعفه، فسار مع عبد الحق إلى لقاء سانشو في جيش عظيم من أنجاد بني مرين وشجعانها وأهل الباس والفتك منها فتلقّاه سانشو على مسيرة أميال من شريش فسلم عليه وأظهر له السرور والفرح والبشاشة وأخرج له الضيافة ولجميع المحلة فأمر الأمير يوسف بالنزول بخارج البلد، فضربت قبابه ومضاربه ونزل فيها ونزل سانشو فدخل معه في خبائه وقال له : أيها الأمير الأسعد، والسلطان المبارك الأصعد، إني أردت أن أكون دخيلك وفي وفاءِ ذمتك، ومتفيئا بظل خدمتك حتى أجتمع مع أمير المسلمين والدك، فأعطاه الأمير يوسف

---

(114) البيان المعرب، قسم الموحدين : 462-463.

أمانه والتزم له ما يرضيه من والده، وتكفّل له بقضاء جميع أغراضه وشؤونه عنده، فقال له سانشو : الآن طابت نفسي ورجعت إليّ، فلمّا كان عشي النهار ركب الأمير يوسف إلى خارج محلته فوقف بها، وخرج جميع من بشريش ينظرون إليه، فركبت أبطال بني مرين تلعب بين يديه وركب سانشو ووقف بإزائه، وبنو مرين في لعبها فقال سانشو : وأنا أيضا ألعبُ سرورا بما منّ الله عز وجل به علي من إقبالكم إلي وإسعادكم لي بالصلح والمهادنة فأنا أولى النّاس بالسرور، ثم أخذ الرمح والترس فلعب مع زعمائه بين يدي الأمير يوسف، فلما غربت الشمس رجع الأمير يوسف إلى منزله ودخل سانشو إلى شريش، ومن الغد سار الأمير يوسف وسانشو إلى لقاء أمير المسلمين فاجتمع به في حصن عين الصخرة على مقربة من وادي لك»[115].

أتينا بهذا النص على طوله لقيمته السردية علاوة على قيمته التاريخية ولدلالته أيضا على ما للمغاربة من علاقة خاصة بمدينة شريش.

وبعد لقاء سانشو بيعقوب بن عبد الحق وتعهده بالتزام الشروط توقفت الهجمات المرينية على هذه المدينة.

وهكذا ورث النصارى مدينة قائمة العمران، تامّة البنيان، وكان أول ما فعلوه فيها — كما فعلوا في غيرها —[116] هو تغيير مساجدها وطمس أضرحتها، ومنها ضريح مترجمنا ابن لبال الأموي النّبيل والشّريشيّ الأصل.

ولكنّهم استغلوا البنى التي وجدوها في المدينة ونواحيها وحافَظوا على أسوارها الموحدية التي ظلّت تامّةً حتى منتصف القرن التاسع عشر[117]، وماتزال أطراف من أبراجها قائمة إلى يومنا هذا.

وقد تحدث السفراء المغاربة الذين سفروا عن مولاي إسماعيل وسيدي محمد ابن عبد الله عن هذه المدينة عندما مروا بها في طريقهم إلى مدريد، وأولهم محمد ابن عبد الوهاب الغسّاني الذي زارها عام 1102هـ—1690م وذكر أن بلاد

---

(115) روض القرطاس : 361—362.

(116) التكملة : 124، 144، 244.

(117) Cíudades Hispano-Musulmanas, p. 494

شريش «متسعة ذات أشجار وأنهار وبها من الزياتين والبساتين والكروم وأنواع الغراسة ما لا يحصى» ثمّ قال : «ومدينة شريش مدينة كبيرة واسعة.. وقد بقي من أسوارها أثر، وأكثره خرب ودثر، وقال إن «جل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم إلاّ أنَّهُمْ تنصّروا، وهم أهل حراثة وفلاحة»[118].

وثاني هؤلاء السفراء هو أحمد بن المهدي الغزال الذي زار شريش وأقام بها فيما بين 9–15 يوليو 1766م وقد توسّع في الحديث عنها وعن أهلها ووصَفَ أغراسها وزياتينها المستقيمة الصفوف وما بقي من سورها وأبوابها وقال إنها من عمل المسلمين وأنه رأى سورة الإخلاص مكتوبة على رخامة في أحد أبوابها، وقد كلّت عبارته ــ كما قال ــ عَنْ وصف «ارتفاع بنيانها، وضخامة ديارها، وعلو أبوابها، وإحكام تشييدها، واتّساع رحابها، وتعدّد الأكداش الذاهبة والآيبة بطرقها، وحضارةِ أهلها، وسعتهم في المال، وتنافسهم في الملابس والمراكب»[119].

أما السفير الثالث فهو محمد بن عثمان الذي مرّ بشريش في عام 1193هـ–1779م وقد عني كسابقه بوصف ما لقي من حفاوة، ونعْت ما شاهد من تقاليد، وقد قال في شريش : «ومدينة شريش هذه من بقية مدن المسلمين رحمهم الله، وسورها الذي كان على عهد المسلمين باقٍ إلى الآن، إلاّ أن النصارى أحدثوا دياراً كثيرة، وأسواقاً كبيرة، خارجة عن السور مثل ما بداخله أو أكثر، وليس للزيادة المذكورة سور، وهي مدينة متوسطة، وأهلها أهل حضرية ورفاهية» وقد تأثّر لما لقي من حفاوتهم وحسن استقبالهم وكرم ضيافتهم وقال : «وقد رأينا من المحبّة في أهل هذه المدينة ما تمنينا لهم به الإسلام ولكن الله يهدي من يشاء» وممّا جاء في وصفه لخُضْرتها وجمال طبيعتها قوله : «سرنا في بساتينها وأجنّتها ما يزيد على ساعة طولا وعرضاً وجل غرسهم الزيتون والكرم المسمّى بالدالية الزحّافة وهم خبرة بأمور الغرس وتربية الأشجار»[120] وهنا نقول : ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه هذه الأحاديث بحديث أبي بكر ابن العربي السابق.

---

(118) رحلة الوزير : 11–12.

(119) نتيجة الاجتهاد : 66–71.

(120) الإكسير : 30–31.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن ثمة كلمات لكتاب وشعراء غربيين في شريش ومنهم الشاعر الفرنسي فكتور هيجو الذي هتف عندما رآها قائلا : شريش مدينة كان يجب أن تكون في الجنة[121]، وهذا القول في الواقع إنما هو صدى خافت لقول الشاعر الأندلسي :

يـا أهـل أنـدلس للّــه دركم ... مــاء وظــل وأشجـــار وأنهار

ما جنة الخلد إلاّ في ديـاركم ... وهذه كنتُ لو خيرت أختار[122]

هذه هي مدينة شريش التي عاش فيها ابن لُبّال وكان عينَ مِصْرِهَا، وكانت تفتخر به على إشبيلية وغيرها[123]، فمن هو ابن لبال ؟

---

(121) Gran enciclopedia de Andalucia, p. 2144

(122) تنسب لابن خفاجة، انظر ديوانه : 364.

(123) كان المستعرب المشهور ليفي بروفنسال قد كتب مادة شريش في دائرة المعارف الإسلامية، ومما جاء فيها أن شريش لم ترتفع في العهد الإسلامي قط إلى مرتبة الحواضر ولم تحتفظ صفحات التاريخ بأسماء ولاتها وأنها أبت مرات متعاقبة أن تكون تابعة للمرابطين والموحدين، كما أنه لم يذكر ابن لبال وهو أشهر أهل شريش، ولاشك أن القارئ سيرى أن ما كتبناه عن هذه المدينة هو أوفر مادة وأصدق تاريخاً.

الفصل الثاني

حياته

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي المعروف بابن لبّال الشريشي، ورفع ابن عبد الملك المراكشي نسبهُ إلى عبد مناف فقال : «علي بن أحمد بن علي بن فتح ابن لبال بن إسحاق بن أمية بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف»[1].

ولم يشر ابن عبد الملك إلى مصدره في هذه السلسلة على خلاف عادته، ولعلّه اعتمد فيها على ابن لبال نفسه الذي كان — كما يقول — «حافظاً للتاريخ والنسب»[2].

ويقول أبو الخطاب ابن دحية الذي عرف ابن لبال وسَمِع منه بمنزله في شريش : «أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن فتح وهو لبّال بن أمية بن إسحاق القرشي الأموي»[3] وإذا لم يكن في هذا النص المطبوع خلل فإن كلمة لبال بما تحمله من مسحة عجمية إنما هي لقب لفتح أحد أجداد المترجم، وهذا يخالف ما رأيناه عند ابن عبد الملك من عده جدّاً آخر بعد فتح.

ولم يُعْن ابن الأبار وابن الزبير وابن عبد الملك بضبط هذا الاسم، ولكنّه ورد مشكولا في بعض النسخ الخطية بضم اللام، وكذلك ورد في النسختين الخطّيتين من برنامج الرعيني، أما المشارقة فقد اهتموا بضبط هذا الاسم الغريب ولكنهم اختلفوا في الضبط فقال الصفدي في الوافي : «لُبّال بضمّ اللام الأولى وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف لام أخرى»[4] وقال ابن الجزري في غاية النهاية : «عرف بابن لَبّال بفتح اللام وتشديد الباء الموحدة وبعدها لام»[5] ونظن أن ضمّ

(1) الذيل والتكملة 5 : 169.
(2) المصدر نفسه.
(3) المطرب : 97 تحقيق الأبياري.
(4) الوافي بالوفيات (مخطوط).
(5) غاية النهاية 1 : 521.

اللام هو الصحيح، ولعل هذا الاسم مأخوذ من اسم لب بضم اللام وهو شائع في أسماء الأندلسيين.

أما الآخرون الذين ترجموا لابن لبّال فإنهم يقفون في تَعداد نسبه عند جده علي، ولكنهم جميعاً متفقون على نسبته الأموية، وإذا صحت السلسلة التي ساقها ابن عبد الملك يكون ابن لبّال من عقب عبد الرحمن الداخل، وهذا ما جاء عند الصفدي الذي ذكر أنه «من نسل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك» وهو من ذرّيّة ولده عبد الله البلنسي، وقد نصّ ابن حزم في الجمهرة على أنه بقي في وقته «من ولد عبد الله البلنسي رجل يعرف بابن الخدين» وابن لبال الذي كان «حافظا للتّاريخ والنّسب» يصرّح بنسبه الأموي في شعره إذ يقول :

تَعجّبَتْ أَنْ رأَتْ مَشيبي ... يَضْحَكُ فِي مَفْرِقِي سُمَيّهْ
لاَ تَعْجبي فَالبياضُ زِيٌّ ... مِنْ زَيّ قَوْمي بَنِي أُمَيّة

ويبدو أنه كان شبه نقيب للأمويين في شريش يعتمد عليه في تصحيح أنسابهم كما سيرد ذكر ذلك.

ولد ابن لبال بمدينة شريش سنة ثمان وخمسمائة ولا نعرف شيئا عن طفولته وأسرته، ويبدو أنه نشأ في أسرة فقيرة من هذه الأسر الأموية التي أخْنى عليها الدهر وجر الخمول أذيالها عليها يومئذ، وقد ترجم ابن خاقان في المطمح لشاعر منتجع اسمه أبو الحسن ابن لبّال لقيه في إشبيلية، وكان يشرب ويطرب وينشد الأمداح، وقد أورد له شعراً يستجدي فيه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وشعراً آخر يخاطب فيه ابن خاقان نفسه وقد كان صديقا له، ولا نستطيع الآن أن نحدّد علاقة أبي الحسن ابن لبّال بمُتَرْجَمنا أبي الحسن ابن لبّال ولكنّنا نشير إلى أن جدّ هذا يُسمّى أبا الحسن علي ابن لبّال غير أن الفرق الزمني بين الرجلين قد لا يسمح بالقول أنه هو المذكور عند ابن خاقان[6].

ومهما يكن من أمر فإن سيرة مترجمنا تختلف عن سيرة هذا الشاعر الذي يشاركه في الكنية والشهرة فقد نشأ صاحبنا فقيراً عفيفا، ولاشك أنه بدأ القراءة صغيراً في بلده شريش قبل أن ينتقل إلى إشبيلية.

(6) المطمح : 93 ونفح الطيب 4 : 231 ــ 234، وانظر الملحق الثالث.

ويستفاد من قائمة شيوخه أن جلّ دراسته كانت بإشبيلية، فقد قرأ القرآن بالقراءات السبع وسمع صحيح البخاري على أبي الحسن شريح شيخ القراء والمحدثين بإشبيلية والأندلس في زمنه[7]، وروى الموطأ عن أبي بكر محمد بن طاهر وأبي بكر ابن العربي بإشبيلية أيضا[8]، ودرس بها النحو واللغة والأدب على أبي الحسن علي بن مسلم[9] وأبي الفضل ابن الأعلم[10] وأبي بكر محمد ابن فندلة[11]، وقد نص في رسالته على قراءته على هؤلاء بإشبيلية، وسمع ببلده شريش مقامات الحريري على أبي القاسم عيسى ابن جهور الذي أخذها ببغداد عن الحريري[12] نفسه. ومن شيوخه أيضاً أبو الطاهر التميمي السرقسطي مؤلف «المسلسل» و«المقامات اللزومية»[13] وأبو الحجاج يوسف القضاعي الأندي[14] وأبو مروان ابن مسرة[15] وأبو الحسن خليل بن إسماعيل[16]، وأبو العباس بن أبي مروان[17] وغيرهم.

وقد تهيأتْ لابن لبّال بهذه الدراسة الجادة ثقافة عامة عريضة، وتكونت لديه مشاركة واسعة في علوم متنوعة، «وكان معتنياً بالقراءات مجَوّداً لها، وافر الحظ من الآداب، حافظاً للتاريخ والنسب، متقدماً في علم العربية، عاقداً للشروط ضابطاً لها»[18].

---

(7) ترجمته في الصلة : 229 والغنية : 273 وبغية الملتمس رقم 849 وغاية النهاية 1 : 324.

(8) ترجمتهما في الصلة : 557-558 وغيرها.

(9) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 180، 392 والتكملة رقم 1848.

(10) ترجمة أبي الفضل حفيد الأعلم في المطمح : 64-67 والصلة : 552 وبغية الملتمس رقم 609 وبغية الوعاة 1 : 161 ونفح الطيب 4 : 73-74.

(11) ترجمته في الصلة : 552 وبغية الملتمس رقم 210.

(12) ترجمته في الصلة : 416 وصلة الصلة رقم 79 وبغية الملتمس رقم 1140.

(13) ترجمته في الصلة : 556 والمعجم لابن الأبار : 140 وبغية الوعاة 1 : 279.

(14) ترجمته في بغية الملتمس رقم 1446 والتكملة رقم 2076 وصلة الصلة رقم 400.

(15) ترجمته في الصلة : 348.

(16) ترجمته في التكملة : 310.

(17) ترجمته في التكملة : 58 والذيل والتكملة 1 : 265-266.

(18) الذيل والتكملة 5 : 169.

ولما انتهى زمن الطلب والدراسة بإشبيلية عاد ابن لبّال إلى بلده شريش واستقرّ به منتصباً للتدريس متطوّعاً به ومشتغلاً بالتوثيق متعيشاً منه، ومهتماً بالتدوين والتأليف. ونقدر أن عودته إلى شريش كانتْ في آخر العقد الرابع من القرن السادس أي حوالي 540هـ وهذا التاريخ يمثل نهاية عهد المرابطين في الأندلس وبداية عهد الموحدين، وقد كانت مدينة شريش أسبق مدن الأندلس إلى الدخول في الطاعة والمبادرة إلى مبايعة عبد المؤمن فأصبح لها بذلك وضع خاص طوال عهد الموحدين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[19].

كان ابن لبّال في هذا التاريخ قد جاوز الثلاثين وبلغ مبلغ الرجال، وفي هذا الجو الاجتماعي الممتاز الذي أصبحت تتمتع به مدينة شريش أقبل أبو الحسن بعزم وحزم على ما كان بصدده من التدريس ونشر العلم، واتسمت حياته منذ شبابه بسمات الفضل والخير والورع والزهد، وسرعان ما أصبح بفضل خصاله الحميدة وشيمه النّبيلة «عين ذلك المصر، وفارسه في الفقه والنظم والنثر» كما يقول ابن دحية مرّة و«فارس الفقه والنحو والشعر»[20] كما يقول مرة أخرى.

ونحن نقدر أنه كان ضمن ذلك الوفد الذي خرج به من شريش قائدها أبو الغمر لملاقاة الموحدين وإعلان مبايعتهم لعبد المومن في ختام سنة 539هـ، وإذا كنا لم نقف على ما يثبت هذا فإنّا قد وقفنا على ما يصرّح بوفادته على الخليفة المذكور لما حل بجبل طارق سنة 555هـ جاء في أنوار التجلي للتغلبي ما يلي : «ومنه قول الفقيه القاضي أبي الحسن ابن لُبّال الشريشي ـــ وكان رضي الله عنه من الزهاد الصلحاء، وكان مجاب الدعوة، وكان له في النظم إدراك قد امتدّ فيه باعُه، وشهر به انطباعه ـــ في الخليفة أبي محمد عبد المومن بن علي وقد دخل عليه بجبل الفتح وقد ازدحم عليه الوفود، وشهر يومه المشهود :

تكاملت فيك أوصافٌ خُصِصت بها ... فكلّنـــا بك مسرورٌ ومغتبـــط
فالسن ضاحِكةٌ والكفّ مانِحَــةٌ ... والصدر متسع والوجه منبسط»[21]

---

(19) روض القرطاس : 188، ط. دار المنصور، الرباط.

(20) المطرب : 97، (الأبياري).

(21) أنوار التجلي : 211 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 608ق.

واليوم المشهود المشار إليه هو الذي تحدّث عنه عبد الواحد المراكشي بتفصيل، وممّا ذكره أن عبد المومن «نزل الجبل المعروف بجبل طارق وسمّاه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى به قصوراً عظيمة وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم، ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة كأهل مالقة وإغرناطة ورندة وقرطبة وإشبيلية وما وَالَى هذه البلاد وانضمّ إليها، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملِكٍ قبله، واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم»[22] وذكر بعد هذا أن أول من أنشدَهُ في اليوم المذكور هو الشاعر الفاسي ابن حبوس وأنشده في ذلك اليوم أيضاً القرشي المعروف بالطليق وابن سيّد الملقب باللص وابن غالب الرصافي، ولم يذكر عبد الواحد المراكشي صاحبنا ابن لبال الشريشي لأنه لم يستقص جميع الذين أنشدوا يومئذ، وقد ذكر ابن عَذاري أن ابن منخّل الشلبي وابن صاحب الصلاة كانا بين المنشدين[23].

وإذا سلّمنا أن ابن لبال كان من الشعراء الوافدين على عبد المومن في جبل طارق فإن نسبة البيتين السابقين إليه لا تخلو من إشكال وذلك أن المؤرخين يذكرون أن ابن تومرت كان ينشدهما إذا أبصر عبد المومن، ومن المعروف أن ابن تومرت توفي سنة 524هـ كما أن ابن خلكان لما أورد خبر انشاده للبيتين علق على ذلك بقوله : «وهذان البيتان وجدتهما منسوبين إلى أبي الشيص الخزاعي الشاعر المشهور»[24].

---

(22) المعجب : 282.

(23) البيان المعرب : 69-70.

(24) وفيات الأعيان 3: 238، وممّا يؤكد أن البيتين لأبي الشيص ورودهما في الحماسة البياسية (؟) فقد جاء فيها ما يلي : «وقال أبو الشيص أيضا من قصيدة في المديح :

يا عُقْبَ إنّكَ من قَوْمٍ ذوي خِططٍ ... مِنَ آلْمكارمِ ما إنْ مِثْلُها خِطَطُ
صيغَتْ لَهُمْ بِكَ مِنْ مَجْدٍ ومِنْ كَرَمٍ ... قلائدٌ لَكَ منْها الْعِقْدُ والْوَسَطُ
تكامَلَتْ فِيكَ أخلاقٌ خُصِصْتَ بها ... فكُلّنا بكَ مَسْرورٌ ومُغْتَبِطُ
السِّنّ ضاحِكَةٌ والكَفُّ مانِحَةٌ ... والصَّدْرُ مُتّسعٌ والوَجْهُ مُنْبَسِطُ

الحماسة البياسية : 107 عن مخطوطة الأستاذ المنوني.

وهما موجودان أيضا في الديوان الذي جمعه يحيى الجبوري من شعر أبي الشيص، وعلى هذا يكون ابن لبّال إنّما تمثل بهما، ومهما يكن من أمر فإنّ الرجل كان في سنة الاخماس المذكورة قد أصبح يشار إليه بالبنان ويضرب به المثل في البيان.

وهذا ما جعل أهل بلده يجمعون على ترشيحه لخطة القضاء عندهم، وهنا يحسن بنا أن نسوق كلام ابن الزبير قال : «وولي قضاء بلده شريش مكرهاً، وكان سبب ذلك أن والي إشبيلية كتب إلى أهل شريش أن يجتمعوا على رجل منهم يولّى القضاء بها فجمعهم وَالِي البلد وأجمعوا عليه ولم يختلف عليه أحد منهم فحلف أن لا يكون قاضياً ورجا أن يبروا يمينه فلم يفعلوا، وكُتب عقدٌ باتفاقهم عليه ووجّه إلى إشبيلية فوصلهم كتاب ولايته، فهم بالمشي إلى إشبيلية ليستعفي فمنعوه واتفقوا على المشي معه في طلبه، وذُكر لصاحب إشبيلية أنه ضعيف الحال فرتّب له مرتّباً يأخذه من المخزن مشاهرة فاشترى منه عبداً فأعتقه كفارة ليمينه وقال في ذلك :

كنتُ مُذْ كنتُ كارهاً أن ألي خطّةَ القَضَا
لَمْ أرِدْها وَإنَّما ساقَها نحويَ الْقَضَا

وقال حين زال عن الْقَضاء :

حُمِلْتُ عَلى ٱلْقَضَاءِ فَلَمْ أُرِدْهُ وَكانَ عَلَيَّ أَثْقَلَ مِنْ ثَبِيرِ
فَلمّا أَنْ عُزِلْتُ جَعَلْتُ أَشْدو : «لَقَدْ أُنْقِذْتُ مِنْ شَرٍّ كَبِيرِ»[25]

ولسنا ندري كم مكث في خطة القضاء التي وجد نفسه مضطرّاً إلى قبولها، ويبدو أنّ مدته فيها كانت قصيرة وقد شعر بكثير من الرضى لما بلغه الإعفاء منها وشكر الله على ذلك.

وفي هذا يقول إبراهيم البونسي أيضا :

«ولمّا ورد عليه الخبر بتأخيره عن القضاء، واستراحته من أمرٍ وليه ولم يزل فيه مبغضا، حمد الله سرا وجهرا، وملأ الأسماع ثناء عليه وشكرا، كأنّهُ كان خائفاً مذعوراً فجاءته بالأمان البشرى، أو فقيراً بائسا [فحلّ] بالمنزل الرحب القِرى،

---

(25) صلة الصلة : 109.

وسُرّ بذلك سرور حاتم طيء بالضيف، أو العاشق المهجور بإلمام الطيف، فعاد بعد اكتئابه مستبشراً جَذِلاً، وأنشأ يقول بلسان السرور مرتجلاً :

حُمِلتُ عَلَى ٱلْقَضَاء وَلَمْ أُرِدْهُ   وَكَانَ عَلَيَّ أَثْقَلَ مِنْ ثَبِيرِ

فَلَمَّا أَنْ عُزِلْتُ جَعَلْتُ أَشْدُو: «لَقَدْ أُنْقِذْتُ مِنْ شَرٍّ كَبِيرِ»(26)

وقد أشار ابن عبد الملك إلى سيرته خلال الفترة التي تقلّد فيها القضاء فقال : «وكان من أفاضل قضاة زمنه صدعا للحق في قضائه، وقياماً بالعدل في أحكامه لا تأخذه في الله لومة لائم» ويقول ابن دحية : «ولي القضاء به (يعني بلده) فحُمدت في ذات الله مآثره وآثاره، وسارت في العدْل أخباره»(27).

ويقول أبو إسحاق إبراهيم البونسي ـــ وهو ممّن أدركه ـــ في كتابه كنز الكتاب : «وكان القاضي أبو الحسن رحمه الله للعلياء سماكا وسها، تتيه بمفاخره شريش على حمص وغيرها، وكانت له سجايا أعذب من الرشفات، وأحلى من التمير والفرات، مبرأة من السهو، منزهة عن التكبّر والزهو، غذّته الأصالة بزلالها، وَرَبَّتْهُ العِفّة تحت ظلالها، فرق من المعالي أعلى هضابها، وَبَذّ أُتْرابَ الإنابَة وجَميع أربابِها، لم تعرف له قط صبوة، ولا خطت قدماه في زلّة خطوة، أعف الناس باطنا وظاهراً، وأطهرهم أردانا ومآزرا، حامل فقه وآداب، متفنّنا في اللغات والإعراب، جليل المقدار، سليم الإعلان والإسرار، عدلاً في أحكامه، جزلاً في نقضه وإبرامه، محلّى بالسكينة والوقار، معلما بسيما الأخيار والأبرار، ملتزماً للتواضع والتأنيس، برّا بالزّائرِ والْجليس، [مع] مهابة الحال، والصواب في المقال، ولي القضاء وهو كاره لخُطّته، خائف من وطأته، إبقاء منه على صيانته، وحفظا لديانته، وفي ذلك يقول :

كنْتُ مُذْ كُنْتُ خائِفاً   أَنْ أَلِي خُطَّةَ ٱلْـقَضَا

لَـمْ أُرِدْهَـا وَإِنَّمَـا   سَاقَهَا نَحْوِيَ ٱلْـقَضَا

مع أنه كان رحمه الله قاصداً قصد المتورّعين، سالكاً منهج المتشرّعين، عارفاً

---

(26) كنز الكتاب : 167 والمصراع الأخير من قصيدة لمهلهل وأوله :
وأنقذني بياض الصبح منها

(27) الذيل والتكملة 5 : 170، والمطرب : 97.

بالأحكام وحقائقها، حافظا لجلائلها ودقائقها، جاريا في أحكامه على السَّنَن القويم سالكا لمنهج الشرع المستقيم، صادق اللهجة، ساطعَ شهابِ المقالة والحجة، مشكوراً بكل لسان، محببا إلى كل ناءٍ ودانٍ، تلوح أنوار البر على أفعاله، ويقتدى بصالح أعماله»[28].

ولما تخلّى عن القضاء تفرغ لما كان يؤثره من الإقراء والتدريس، وقد وصف ابن عبد الملك حاله في تعليمه ومعيشته فقال : «وكان محرّضاً على طَلَبه، برّاً بطلَبَته، معظّماً لشأنه وأهله، لين الجانب لهم ناصحاً في تعليمه، متواضعاً في أحواله، متبذّلاً في لبسته، أكثر لباسه جبّة صوف لا شِعار لها، يتولّى خدمته لنفسه، وشراء ما يحتاج إليه، وحمل خبزه إلى الفرن وسوقه منه تخاملاً وقهر نفس»[29].

وقد ذكر ابن الزبير أن هذا الفقيه الجليل الذي تهرّب من خطة القضاء وتطوع بالتدريس كان يتحرّف ـــ لكسب قوته من الحلال ـــ بكتابة الوثيقة «إلاّ أنه لا يكتب إلاّ ما يتيقّن صحّته»[30].

أما تلاميذه فمعظمهم من أبناء بلده شريش؛ ومن أنجبهم أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي شارح المقامات المشهور[31]، وكان شيخه ابن لبّال يثبت نسبه في بني أمية، وفي هذا ما يدل على اعتزاز الشيخ بتلميذه، وقد تابع هذا التلميذ شيخه في شرح المقامات، وضمن هذا الشرح جملة من أشعار شيخه، ومن أنجبهم أيضاً الأديب الشاعر أبو عَمْرو محمد ابن غياث الشريشي[32] وهو من سراة الأعلام، وحسنات الأيام، رق نسيم نسيبه، وراق ما اخترع من عجيب النظم وغريبه[33]، وأبو بكر محمد ابن الغزّال الشريشي[34]. وأبو الحسن علي ابن الفخار

(28) كنز الكتّاب : 164.
(29) الذيل والتكملة 5 : 170.
(30) صلة الصلة : مخطوطة التيمورية.
(31) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 1 : 268.
(32) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 6 : 295.
(33) المغرب 1 : 305.
(34) ترجمته في الذيل والتكملة 6 : 499.

الشريشي[35]، وأخذ عنه من غير أهل شريش النحوي المشهور أبو علي الشلوبين الإشبيلي[36] وأبو الخطاب محمد ابن خليل وأخوه أبو عمر، وهما من لَبْلَة وأبو محمد عبد الله ابن حوط الله وشقيقه أبو سليمان داود وهما من مالقة وأبو بكر محمد بن خليفة، ولم يذكر ابن عبد الملك بلده.

يُنعتُ ابن لبال بالقاضي الزاهد، هكذا وصفه الرعيني أكثر من مرّة[38]، وقال ابن الزبير : «وكان... زاهداً ورعاً فاضلاً من أفضل أهل زمانه وأورعهم». ثم قال : «وأخباره في ورعه كثيرة»[39]. وظل على حاله هذه إلى أن توفي سنة 582هـ. وهو ابن أربع وسبعين سنة وكان قد تقوّس ظهره، وصار يدبّ دبيب الشيوخ، متّكِئاً على عصاه، وقد وصف حاله في الكبر فقال :

قَوّسَ ظَهْرِيَ الْـمَشِيبُ وَالكِبَـرُ وَالدَّهْـرُ يـا عمـرو كُلُّـهُ عِبَـرُ
كأَنَّنِي وَالْـعَصَا تَـدِبّ مَعِـي قَوْسٌ لَها وَهْيَ فِي يَدِي وَتَرُ

وكرّر هذا فقال :

لَمّا تَقَوّسَ مِنّي الْجِسْمُ عَنْ كِبَرٍ وَابْيَضّ مَا كَانَ مُسْوَدّاً مِنَ ٱلشَّعَرِ
جَعَلْتُ أَمْشِي كَأَنّي نِصْفُ دَائِرَةٍ تَمْشِي عَلَى ٱلأَرْضِ أَوْ قَوْسٌ بِلاَ وَتَرِ

كان يوم وفاة ابن لبّال يوماً مشهوداً. قال ابن عبد الملك : «وكان الحفل في جنازته عظيماً والثناء عليه جميلاً، ولم يزل قبره مزوراً مرجو البركة رضي الله عنه»[40].

وقد وصف أبو إسحاق إبراهيم البونسي، سالف الذّكر جنازته فقال : «شهدت جنازته رحمة الله عليه وبركاته في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة وأنا يومئذ غلام يافع، بين يدي أستاذي

---

(35) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 185.
(36) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 5 : 460.
(37) الذيل والتكملة 5 : 631، 635، 6 : 196-197.
(38) برنامج الرعيني : 90، 122.
(39) صلة الصلة : 109.
(40) الذيل والتكملة 5 : 171.

خاضع متواضع، مولع بالأدب وجماله، ومقتبس أنوار العلم من رجاله :

أقـول لسائـلٍ عنّـي ملـحّ طـلاب العلـم ريحاني وراحـي

فخرجت خارج المدينة بعد صلاة العصر، وهي قد ألقت من فيها، من أهلها وساكنيها، واجتمع قاصيها إلى دانيها، والناس بين باكٍ ملء عينيه، ومسترجع عاضّ على يديه، وصُلّي عليه، ثم دفن الحلم والورع معه في قبره، وتعطل جيد الزمان من نظمه ونثره»[41].

هذا ما وصل إلينا فيما وقفنا عليه من أخبار ابن لبال ويقول ابن الزبير في ترجمته ما يلي : «وشعره رحمه الله كثير، وأخباره في ورعه وفضله عجيبة قد قيدت منها في غير هذا»[42]، ولو وصل إلينا جميع شعره وبلغتنا هذه الأخبار العجيبة التي قيدها ابن الزبير في «كتاب الاعلام، بمن ختم به القطر الأندلسي من الاعلام» لزادت معرفتنا به ولربما كنا نجد أخباراً أخرى أيضا في تآليفه المفقودة كشرح المقامات، والمحكم، في ترتيب حروف المعجم، ومع ذلك فإنّنا نستطيع أن نستخلص مما سبق أن السّمة الغالبة على شخصية ابن لبال هي سمة الورع، ويُمْكِن اعتبارُها مِفتاح شخصيته، ومعنى الورع في الأصل هو الكفّ عن الحرام والتحرّج منه، ثم استعير للكفّ عن الحلال والمباح، والورع هو ملاك الدين المتين ومعيار اليقين وقد بين الغزالي أن الورع درجات وقال بعد أن شرحها : «والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عمّا حرمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصدّيقين، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط»[43] ولو وصلت إلينا أخبار ورع ابن لبّال التي أشار إليها ابن الزّبير لعرفنا نوع ورعه، ويعتبر هربه من تولّي خطة القضاء وقسمه على أن لا يليها مع إجماع الناس على اختياره، واتفاقهم على تقديمه من علامات ورعه، وهو يذكرنا في تهربه من القضاء وقبولِه لها كارها بالقاضي الشهيد الزاهد الورع أبي علي الصدفي، على أنّ لهما مُثُلاً سابقة في المشرق والمغرب.

(41) كنز الكتاب : 166-167.

(42) صلة الصلة : مخطوطة التيمورية.

(43) الإحياء.

ومن علامات ورعه الواضحة التزامه في سلوكه اليومي بما يدلّ على ذلك إذ كان كما تقدم ذكره : «متواضعاً في أحواله متبذّلاً في لبسته، أكثر لباسه جبّة صوف لا شعار لها يتولّى خدمتهُ لنفسه وشراء ما يحتاج إليه وحمل خبزه إلى الفرن وسوقه منه تخاملا وقهر نفس» وكان أيضا محرضّا على طلب العلم معظما لشأن حَمَلَتِه وأهله ناصحا في تعليمه برّا بطلبته لين الجانب لهم.

ولعلّنا نزداد إيمانا بصدق مظاهر الورع هذه إذا عرفنا أنّها صادرة عن إنسان جمع بين شرف العلم وشرف النسب وكان أهل بلده يتسابقون إلى خدمته لو شاء.

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أن ابن لبال الذي كان ورعا لم يكن متزمّتا ولا مُرائيّاً، ويتجلّى هذا على الخصوص في أمرين :

أولهما أريحيته الأدبية وسماحته الخلقية فيما يتحرج منه المتزمتون وينتقده المراءون، وذلك كشعره الذي يصف فيه مظاهر الجمال في الإنسان والطبيعة ولكأن تلميذه ابن غياث عناه بقوله :

يَرَى أنّ حُبّ ٱلْحُسْنِ فِي ٱللّهِ قربَةٌ لِمَنْ شَاءَ بالأَعْمالِ أَنْ يَتقَرَّبَا[44]

وقد يبدو بعض ما ورد في شعره من غزلٍ بالمذكر ووصف للخمر وتشبيهات بمفاتن الجسد أموراً مخالفة للورع، ولكنّنا نظنّ أنه قال ما قال إما رياضة في القول ومجاراةً للغير أو أنه سلك في ذلك مسلك الملامتية ولا يتصور في الرجل غير هذا لأن الشهادات على ورعه متواترة، يروي أبو إسحاق البونسي أن ابن لبال «لم تعرف له قط صبوة، ولا خطت قدماه في زلّة خطوة، أعف الناس باطناً وظاهراً، وأطهرهم أردانا ومآزراً»[45] وقد كان عدد من القضاة والفقهاء في عصره يقولون في الغزل وغيره ومنهم على سبيل المثال أبو حفص ابن عمر.

أما الأمر الثاني الذي يدلّ على أنه لم يكن متزمّتا أو منعزلا مُنزويّا فهو صلاته بالناس ولاسيما أهل الأدب، ذكر ابن عبد الملك أن «بينه وبين جماعة من أدباء عصره مخاطبات أدبية نظما ونثراً تدلّ على متانة أدبه»[46] وقد وصلت إلينا بعض

---

(44) المغرب 1 : 305.

(45) كنز الكتاب : 164.

(46) الذيل والتكملة 5 : 170.

هذه المخاطبات، فمن ذلك بيتان خاطب بهما الأديب أبا العباس أحمد بن سيد الاشبيلي في حفظ الود والمحافظة على العهد إذْ فرقت بينهما الأيام بعد أن كانا زميلين في الدراسة والقراءة على الشيوخ باشبيلية فرجع ابن لبال إلى بلده شريش وبقي صاحبه ابن سيد في بلده إشبيلية وقد كان ابن سيد هذا كما يقول ابن عبد الملك : «مقرئا مجوّداً، متحقّقا بعلوم اللسان نحواً ولغة وأدباً، ذاكراً للتواريخ، حسن المجالسة، شاعراً مُفْلِقاً، وشعره مدوّن وأقرأ اللغة والعربية والأدب طويلاً»[47].

ومن إخوانه الذين خاطبهم بشعره الأديب الكاتب الشاعر أبو الوليد يونس بن محمد القسطلي من أهل الجزيرة الخضراء، يقول ابن الأبّار في حقه : «وكان من كبار البلغاء وفحول الشعراء متصرّفا في فنون الآداب وأساليبها»[48] وقد وصلت إلينا بعض قصائده في مدح الخليفة يوسف بن عبد المومن[49]، ويذكر ابن الأبار أنه «كتب لبعض الولاة»[50] ويبدو أن ابن لبّال الذي كان برّا بإخوانه كتب إلى أبي الوليد يهنئه بهذا المنصب وقد جاء في مطلع هذه القصيدة :

يـا خَلِيلَـيَّ بِالـرِّكابِ سُحيراً عَرِّجـا لِلْجَزيـرَةِ ٱلْـخَضْرَاء
حَيْثُ هَزَّ الْغَديرُ عِطْفَيْهِ مِمّـا أَفْلَتَتْـهُ أَنَامِـلُ ٱلْحَصْبَـاءِ
وانْبَـرَى يَسْتَحيـلُ بَيْـن شَواطيـه زُلاَلاً مِـنْ دُرَّةٍ بَـيْضاءِ
وَوَشَى الْقَطْـرُ جانِبَيْـهِ فَباهَـى بِأَزَاهِيـرِهِ نُجُـومَ ٱلسَّمَـاءِ
وَانْثَنَى مِعْطَف ٱلْقَضِيبِ ٱخْتِيالاً لِغِنَـاءِ ٱلْحَمَامَـةِ ٱلْوَرْقَـاءِ[51]

ونحسب أن «الغدير» الذي وصفه ابن لبال في هذه الأبيات هو «الغدير» الذي يقول فيه أبو الوليد القسطلّي :

وفـوق الدَّوْحـة الغَنّـا غديـرٌ تَـلألأ صفحـة وصَفَـا قَـرارا
إذا مَا انصبَّ أزرقَ مُستطِيـلا تـدوَّرَ في البُحَيْـرةِ واسْتَـدَارا

---

(47) نفسه 1 : 317-318.
(48) التكملة ــ مخطوطة.
(49) الحماسة البياسية ــ مخطوطة.
(50) التكملة ــ مخطوطة.
(51) كنز الكتاب : 164.

يجرّده فـمُ الأنبـوب صَلْتـاً حُسامـاً ثـمّ يُفْلتُـه سِوارا[52]

أمّا الأبيات المتعلّقة بالتهنئة فهي قول ابن لبّال في تهنئة أبي الوليد بترقيته وتهنئة الجزيرة الخضراء به :

وتـراءى أبـو الوليـد فخـرّت لسنـاه كَـواكبُ الجَـوزاءِ
ورَقى رتبـة الـوزَارَة حَتَّـى حـلّ تاجـاً بمفـرق الـوزراء
فَهَنيئـا لكِ الجَزيـرة مَـاذا حُزت منه من السَّنا والسَّنـاء
فاحفَظيه مـنَ الحوادث حتَّـى تنجـزِي بَيْننا وجـوه اللّقـاء[53]

ومن الأعلام الذين كانت لابن لبّال بهم صلة أدبية الفقيه القاضي الكاتب أخيل بن إدريس فقد امتدح براعته في الكتابة :

وسل البراعَة في أنامـل كفِّـه شذْراً يصوغُ بطِرْسه أم جوهرا

وامتدح عدله في القضاء :

قـاضٍ أتى والحقُّ غصنٌ ذابـلٌ فسقاه ماءَ العـدل حتّـى أثمرا[54]

وربّما يكون الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرفاء البلنسي ثم المالقي هو أشهر إخوان ابن لبّال، فقد كانت بين الشاعرين كما يقول أبو إسحاق البونسي مراسلات، أورد هذا في كتابه كنز الكتّاب أبياتا لابن لبّال في مدح أرض شذونة ثم قال : «وفي هذا المعنى من مدح المواطن، والثناء على مبهج الأقطار الأريضة والأماكن، كما يثنى على إخوان المودّة والتّصَافي، قول معاصره ومُراسِلِه أبي عبد الله الرصافي..»[55].

ولكن لم يصل إلينا من المكاتبات التي كانت بينهما إلا قصيدة رائية للرصافي يجيب بها على رائية مفقودة لابن لبال الشريشي[56].

---

(52) نفسه.
(53) نفسه.
(54) نفسه.
(55) نفسه.
(56) ديوان الرصافي : 77 وتحفة القادم : 75.

وكان له أيضا أحباب آخرون في مدينة إشبيلية التي درس فيها وقضى بها زمن الشّباب، وهؤلاء هم الذين خاطبهم بالشعر الذي يقول في أوّله :

سَلاَمٌ عَلَى حِمْصٍ وَإِنْ غَيّرَ ٱلْبِلَى ... مَعاهِدَ مِنْها نِلْتُ فِيهَا ٱلأَمَانِيا(57)

وهو يستذكر في هذا الشعر نزه الطلبة بوادي إشبيلية ويصف الزوارق التي كانت تجرى فيه للرياضة والنزهة نهاراً وليلاً فيقول :

بِنَفْسِيَ هَاتِيكَ ٱلزَّوَارِقُ أُجْرِيَتْ ... كَحَلْبَةِ خَيْلٍ أَوّلاً ثُمَّ ثَانِيا
وَقَدْ كانَ جِيدُ ٱلنَّهْرِ مِنْ قَبْلُ عَاطِلاً ... فَأَمْسَى بِهَا في ظُلْمَة اللَّيْلِ حَالِيَا
عَلَيْهَا لِزُهْرِ ٱلشَّمْعِ زُهْرُ كَوَاكِبٍ ... تخالُ بِهَا ضِمْنَ ٱلْغَدِيرِ عَوَالِيَا
وَرُبَّ مُشَارٍ بِالْجَنَاحِ وَآخَرٍ ... برجلٍ يُحاكِي أَرْنباً خافَ بَازِيَا

ولا نستطيع بعد هذا أن نحصر أصدقاء ابن لبّال ومعارفه فيمن ذكرنا، فقد كانت الحقبة التي عاش فيها حافلة بالأعلام في مختلف العلوم والفنون، وكانت الجهة التي ينتمي إليها وهي غرب الأندلس ـــ وفيها قرطبة وإشبيلية ـــ غاصّة بأهل العلم والأدب من أهلها ومن الوافدين عليها، فمن أشهر رجالات هذه الجهة في الحقبة المذكورة أبو الوليد ابن رشد الحفيد وأبو بكر ابن زهر وأبو بكر ابن الجد وأبو عبد الله ابن زرقون وأبو القاسم ابن بشكوال وأبو جعفر ابن مضاء وأبو بكر ابن خير وأبو الحسن نجبه وأبو الحكم ابن المرخي وولده أبو بكر ابن المرخي وغيرهم من أضرابهم كثير، ولكنّنا لا نعرف هل كانت لابن لبال بهم علاقة أم لا ؟

والذي يظهر لنا ممّا تقدم من ترجمته أنه كان قليل الحركات والعلاقات، فهو لم يخرج من بلده شريش فيما نعرف إلا مرتين : مرة إلى إشبيلية من أجل الدراسة، ومرة ثانية إلى جبل طارق في جملة الوافدين على الخليفة عبد المومن بن علي حسب بعض الروايات.

وتعتبر حال ابن لبال هذه من الأحوال النادرة، إذ أن معظم أمثاله في هذا العصر كانوا يتنقّلون في أرجاء الأندلس والمغرب على الأقل للقاء الرجال وغير ذلك، ولو أخذنا ـــ على سبيل المثال ـــ أحمد بن عبد المومن الشريشي تلميذ ابن لبّال لوجدناه قدْ تَنَقّلَ بين شريش وإشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية والجزيرة

---

(57) كنز الكتاب : 164–165.

الخضراء وسبتة وفاس ومراكش وسجلماسة وغيرها من البلدان التي رحل إليها لطلب العلم أو العمل[58]، ولهذا كثر شيوخه وكان له برنامج يشتمل على تعريفه بهم ورواياته عنهم، ومثله في هذا بلدي ابن لبّال أيضاً ومعاصره أبو الحسن علي بن هشام الشريشي الذي شاركه في الأخذ عن أبي بكر ابن طاهر ثم رحل إلى المشرق وحج وتجوّل في مصر وافريقية فكثر بسبب هذا عدد شيوخه وعدد تلاميذه من أهل بلده والراحلين إليه[59]، ويتبين من تراجم عدد من أهل شريش أنهم خرجوا من بلدهم في رحلات علمية أو سياحات صوفية، ومنهم من كان يعود إلى بلده، ومنهم من كان يطيب له المقام في غيره.

فهل ترجع ملازمته شريش وعدم خروجه منها إلى قلّة ذات اليد كما قيل أم أن ذلك كان عن تسليم وتصميم ؟

وهل كان رفضه خطّة القضاء عن زهد وورع فقط أم أنه كان أيضا تعبيراً عن رأي وموقف ؟

وهل كان إقباله على مقامات الحريري درسا وشرحا لغاية تعليمية فحسب أم أن الهدف التربوي كان مقصوداً أيضاً ؟

يخيل إلي أن ابن لبّال الورع الزاهد من جهة الأديب الأريحي من جهة ثانية وجد ضالته فيما تشتمل عليه المقامات «من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية، والفتاوي اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية» لاسيما أن الحريري أنشأها كما يقول «للتنبيه، لا للتمويه، ونحا بها منحى التهذيب، لا الأكاذيب» فكان في ذلك «بمنزلة من انتدب لتعليم، أو هدي إلى صراط مستقيم»[60] وقد نبّه أحمد بن عبد المؤمن الشريشي إلى أن الزاهد موسى ابن عمران الاشبيلي معاصر ابن لبّال الشريشي كان كثيراً

---

(58) انظر ترجمته في التكملة : 111–112. والذيل والتكملة 1 : 268–270.

(59) الذيل والتكملة 5 : 416–419 وصلة الصلة : 127 والتكملة رقم 1891 وبرنامج الرعيني : 24.

(60) راجع ديباجة المقامات.

ما يستمد في شعره من أدب المقامات للحريري[61] وأثبت في شرحه الكبير طائفة من أشعار الزاهد المذكور المستمدّة من المقامات، وما قاله عن هذا الزاهد ينطبق أيضا على الزاهد ابن لبّال الشريشي، ونظن أن الأشعار التي أوردها لَهُ الشارح المذكور في شرحه الكبير أيضاً نقلها من شرح أستاذه ابن لبّال، ومن الغريب أنه لا يصرح به ولم يذكره بين الشروح في مقدمة شرحه الكبير، كما أن هذا التلميذ الذي عدّه ابن الأبّار أول راوٍ[62] عن ابن لبّال يذكره كثيرا بدون تحلية هكذا : «قال ابن لبال» أو «قال أبو الحسن ابن لبّال» أو «وله أيضا عفا الله تعالى عنه» وقد تأدّب معه مرة فقال : «وقال الفقيه الأديب ابن لبّال رحمه الله»[63] وما أبعد الفرق بين أحمد بن عبد المومن هذا وبين أبي الخطاب ابن دحية وأبي إسحاق البونسي وأبي جعفر ابن الزبير، فهؤلاء لا يذكرون اسم ابن لبّال إلا مقرونا بصفات الإجلال والاحترام.

إن الجانب الذي استطعنا أن نتعرف عليه من جوانب شخصية ابن لبّال هو جانب الأديب، أما جانب الفقيه القاضي الذي صنّفه بِهِ ابن سعيد مع علماء الشريعة ودعاه بحاكم شريش[64]، فهو جانب لا نعرف عنه شيئا، ولاشك في أنه لَمْ يُطْلَب إلى خُطّة القضاء في بلده إلا لمعرفته بالفقه واطلاعه على الأحكام الشرعية، ومن الطبيعي أنه كان يستفتى في المسائل الفقهية، فقد سأله مرة سائلٌ عن الحكم في أكل لحم ابن آدم ميّتا وهل يجوز أكله لمن اضطُرّ إليه، فأجاب عن السؤال نظماً، ومما جاء فيه قوله :

فالمالِكِيّ يَرَى سَواءً أَكْلُه مَعَ قَتْلِهِ، هَذا كَلاَمُ ٱلصّادِق
وَالشَّافِعِيُّ يَرَى مُباحاً أَكْلَه لِلْبائِسِ ٱلْمُضْطَرّ خيفَةَ عائِقِ[65]

---

(61) الشرح الكبير 1 : 35 وقد جمعنا شعره.

(62) التكملة : 111.

(63) الشرح الكبير 1 : 96، 2 : 25، 3 : 65 وقد شذ مرة واحدة فقال : شيخنا، وصرح بالنقل عن شرحه. 3 : 42 وننبّه هنا إلى أن شهرة ابن لبال كلما وردت في طبعة خفاجي حرفت إلى ابن لبال أو ابن الليال أو ابن اللبان. ومثل هذا التحريف والتصحيف كثير في هذه الطبعة الشّوهاء.

(64) رايات المبرزين : 52.

(65) كنز الكتاب : 166–167.

ونظن أن «شعبية» ابن لبال ومحبة أهل بلده له وما رزق من قبول عندهم لم تكن بسبب نسبه أو علمه أو ورعه فحسب وإنما كانت أيضا بفضل مشاركته في الحياة اليومية بالمدينة واهتمامه بهموم الناس وأمورهم، وقد رأينا كيف كان يهتم بنشر العلم وإعانة الطلبة وافتاء الناس وإرشادهم، ثم إنّنا وقفنا على ما يشير إلى أنه كان يدافع عنهم، وينتقد بعض مظاهر الحيف التي كانت تقع ويُشْتَكَى مِنها، فهاهو مَثلاً ينتقد عمل الخراصين الذين كانوا يقدّرون المحاصيل الفلاحية ويبالغون في تقديرها، قال :

يا مَنْ أَتَى يخرصُ الزّيتونَ فارغه	ويستدلّ عَلى ما فاتَ بالْـوَرَقِ
أتعلَمُ الغيبَ دون الناسِ كلّهم	لا، والّذي خلقَ الإنْسانَ من عَلَق
وإنّمـا أنْتَ فيمـا تَسْتَـدلّ بـِـهِ	كثاقِب الدّرّ في داجٍ من الغَسَق
فتُبْ إلى اللّهِ واحْذَرْ من عواقِبِهِ	«مَنْ يَرْكَب الْبَحْر لاَ يَأْمَنْ مِنَ ٱلْغَرَقِ»(66)

وإذا كنا لا نعرف شيئا كثيرا عن أعمال ابن لبال الاجتماعية فإننا نعرف قدراً طيّبا من أعماله وآثاره الأدبية، فما هي هذه الآثار ؟

(66) نفسه، والشطر الأخير مضمّن فيما يبدو ولكنّي بعد البحث لم أقف عليه.

الفصل الثالث

آثاره

أما آثار ابن لبال الأدبية فهي :

1 ـ شرح على مقامات الحريري وصفه ابن عبد الملك المراكشي بأنه شرح مُفيد[1]، ووصفه ابن الجزري بالشرح الجيد النافع[2]، ويبدو أنه مفقود الآن، ولعل شرح تلميذه أحمد بن عبد المومن الشريشي غطّى عليه، فكتبت له الشهرة والبقاء، ونحسب أنّ هذا التّلْميذ آستعان بشرح شيخه، ولكنه لم يذكره من جملة شروح المقامات في مقدمة شرحه بل إنه لم يذكره أيضا فيمن أخذ عنهم المقامات[3] و لم يصرّح بالنقل عنه إلا مرة واحدة في آخر المقامة الكرجية، عند شرح بيتي ابن سنكره في كافات الشتاء، فقد أورد ثلاثة أبيات للشاعر الأندلسي ابن مسعود زاد فيها كافاً ثامنة وقال : «نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن لبال، قال (أي ابن لبال) : ولما جمعنا في أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات، قلت في ضدّها الْحَرِّ بَيْتَيْنِ جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهي :

عِندي فدَيتكَ راءاتٌ ثمانيةٌ ... أُلْقَى بها الحرَّ إنْ وافى وإن بردا
رَفٌّ وروحٌ وريحانٌ وريق رشاً ... ورفرف ورياض ناعم وردا»[4]

وقد نقل عنه أيضاً حكاية عند الكلام على النرجس واختلاف المغاربة والمشارقة في تحديده ووصفه، قال : «ويدلّ على ذلك حكاية القاضي الفقيه أبي الحسن بن لبال، قال : خرجت عشية لخارج إشبيلية أيام حداثتي وقراءتي بها، فجلست في وسط واديها، وبيدي كتاب أنظر فيه، وإذا رجل يحملق حوالي، فإذا نظرت في الكتاب يأخذ ينشد للأشعار التي بين أيدينا نظائر من بديع الشعر، فذاكرته فوجدته بحر أدب، فسألته عن محفوظه، فقال : أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر، فسألته هل تنظم شيئا فأنشدني في وصف فرس وزعم أنه قائلها :

---

(1) الذيل والتكملة 5 : 170.

(2) غاية النهاية 1 : 521.

(3) شرح الشريشي على المقامات 1 : 6–8.

(4) شرح الشريشي على المقامات 3 : 42.

مَنَعَ الحوافِر أن يَطِئْنَ به الثَّرى فكأنَّـــه في جَرْيِـــهِ مُتَعلّـــق
وكـأنَّ أَرْبَعَـة توافِـقُ طَرْفَـــهُ فتكـادُ تَسْبِقُـه إلى مـا يَرْمُـقُ

فاستعدت بيتيه، وراجعته في قوله يطئن، فقلت له إنما هو يطأن، فلم يعرف اللفظ وإنما تكلم بلا همز على لحن عامته، فجربته في غيره، فوجدت شعرَه من جهة الطبع وكثرة الحفظ لا من جهة العلم، فسألته عن بلاده فقال : أنا من العراق، فقلت له : فما السبب الذي جاء بك إلى الأندلس، فقال لي : لأرى النرجس الأصفر المذكور في أشعاركم عيانا»(5).

ويستفاد من هذين النصّين أن شرح ابن لبّال على المقامات حافلٌ بالحِكايات والمختارات الأدبية ولاسيما الأندلسية، وأنّهُ يشتمل على نماذج من شعر مؤلّفه، كما تدلنا نقول منه وردت في كتاب الدوحة المشتبكة على أنه عامر بالفوائد الفقهية والتاريخية.

جاء في الباب الخامس منْهُ في أول مَن ضرب الدينار والدرهم ما يلي :

«قال القاضي أبو الحسن بن لبال في شرحه لمقامات الحريري : إن الناس في أول الزمان كانوا يتبايعون بالعُروض فيما بينهم كالحنطة والشعير والحبوب والفواكه وما أشبه ذلك فشكوا إلى ملكهم ما ساءهم من ذلك وما يخافون من تلف أموالهم إن هم بقوا على هذه الحالة فأمرهم أن يختاروا ما لا يفسد على طول المكث فاختاروا حجر الذهب الذي هو أبقى جواهر الأرض لا يفسد أبداً، وكلما بقي تحت الأرض صلُح وطاب، وكلما دخل النّارَ تخلّص وحسن، وأمر بضرب الدنانير وطبعها بطابع المُلْك ونهى أن تفسد أو أن يكسر طابعها وأن من فعل ذلك تقطع يده.. وأخبروه أيضا أنهم يحتاجون إلى ما لا يفي ثمنه بقيمة الدينار [بل] بأقل منه أو بأجزائه ممّا لابدّ لهم من مصلحة أنفسهم من شراء الحوائج فأمرهم باختيار حجر آخر دون الذّهب تكون قيمة الدينار منه عشرة دراهم فاختاروا الفضّة وضرب منها الدرهم وطبعه بطابع الملك وكانت قيمة العشرين ديناراً مائتي درهم»(6).

---

(5) نفسه 1 : 55.

(6) الدوحة المشتبكة : 44.

وثمة شرح آخر للمقامات ألّفه أحد تلاميذ ابن لبّال أيضاً وهو أبو جعفر أحمد ابن داوود الجذامي الذي تقدم ذكره، وقد وصل إلينا السفر الثالث من شرحه المذكور وهو شرح حافل أجاد فيه كما أجاد في شرحه على أدب الكتّاب[7]، وهو أيضا ينقل عن شرح شيخه ابن لبّال في مواضع متعدّدة، وقد تتبّعنا نقوله عنه في السفر الثالث ورأينا من المفيد إيرادها هنا، جاء في الورقة 21و ما يلي :

«وقوله : إيه يا فتى : كذا رويته عن أبي ذرّ[8] وعن ابن غزوان[9] جميعا. أي زد من قولك يا فتى ! فإلى متى سكوتك ويدلّ عليه قول الفتى إنه لم يبق في كنانتي مرماة.

وإيه : اسم فعل تأتي لمعنى الاستزادة فتنوب عن قولك : زد، وتنوّن ولا تنوّن، وزعم بعضهم أنها إذا نوّنت كانت نكرة وإذا لم تنوّن كانت معرفة.

ورويت عن الفقيه أبي الحسن بن لبال الشريشي رحمه الله : إيهَ يا فتى من غير تنوينها أي حسبك يا فتى، فتنوب عن قولك كف، وكان يقول : وهذه الرواية أحسن في المعنى لقولِه بعد ذلك : فإلى متى وإلى متى، أخذه من أبيات لعمر ابن عبد العزيز رحمه الله قالها قبل خلافته وهي :

إنْه الْفُؤَادَ عَنِ الصِّبَا ... وَعَنِ انقيادِ للْهَوَى

فَلَعَمْرُو رَبِّكَ إنّ في ... شَيْبِ ٱلْمَفَارِقِ والحُلَى

لَكَ وَاعِظاً لَوْ كُنْتَ تَتـ ... ـعِظُ اتّعاظ ذَوِي النُّهَى

حَتَّى مَتَى لاَ تَرْعَوِي ... وإلَى مَتَى وَإلَى مَتَى

وأردت عجز هذا البيت، وإنّما يقال ذلك لمن لم يستكف».

---

(7) يوجد شرحه على أدب الكتاب في الخزانة الصُّبَيْحِيّة بسلا كما يوجد السفر الثالث من شرحه على مقامات الحريري في الخزانة العامّة تحت رقم 1266د.

(8) هو أبو ذر مصعب بن محمد الخشني، من شيوخ زمنه في علوم القراءات واللغة والنحو والآداب، ولد بجيان سنة 553هـ وولي القضاء وأقرأ بالأندلس والمغرب، وتوفي بفاس سنة 604هـ ومن تآليفه شرح غريب السِّيَر، وهو مطبوع.

(9) هو أحمد بن عبد العزيز المعروف بابن غزوان، كان من جلة المقرئين وكبار النحويين واللغويين، له أراجيز تعليمية كثيرة. ترجمته في الذيل والتكملة 1 : 245 والمصادر المحال عليها هناك.

وجاء في الورقة 69و عند قوله : وتخشى منه حدته أي غضبه ونزقه ما يلي :

«وكان أبو الحسن بن لبّال يقول في قوله : وتخشى منه حدّته. يريد بها سرعة جريه وحركته فيخشى الإنسان منه أن يقربه أو يتشبّث به فيملكه، قال : ومعنى قوله ولكن قلبه صافٍ أي ليس هو من الحيوان فيكون له حقد. يقال :. فلان صافي القلب إذا كان خالص الود».

وجاء في الورقة 90ظ ما يلي :

«وقال لي أبو الحسن بن لُبّال : عملت بيتي لغز جمعت فيهما أسماء العجوز وهما :

مقارعة العجوز أشدّ عندي وأقتلُ من مقارعة العجوز
وما قتل العجوز أمرُّ عندي ولا بِألَذَّ من بول العجوز

العجوز الأولى : المرأة الكبيرة والثانية السيف والثالثة الخمر والرابعة البقرة»[10].

وشرح في الورقة 115 كلمة ونقرت بقوله : ونقرت بحثت ثم ذكر ما يلي :

«وكان أبو الحسن بن لبّال يقول : معنى نقرت : أكلت، يقال : نقر الطائر إذا لقط بمنقاره التمْرَ والحَبّ، ولهذا قال : من نخلة، ولو أراد البحث لقال من نخلة أي متى أكلت من جنى نخلةٍ».

إن شرح المقامات يتطلب بصفة عامّة ثقافة أدبية ولغوية، ويبدو من هذه الشواهد أن لأبي الحسن ابن لبال اجتهادات جيدة في الاستعمال اللغوي، ويعتبر شرحه أوّل شرح للمقامات الحريرية في الأندلس فله خصل السبق وفضل المتقدم، وعسى أن يجود الزمن بظهور هذا الشرح الرائد.

2 ــ مقدمة في العروض. انفرد ابن عبد الملك المراكشي بذكرها ووصفها بأنها نافعة[11]، ولا نعلم عنها الآن شيئا.

3 ــ كتاب المحكم، في حروف المعجم. انفرد ابن دحية بذكر هذا الكتاب

---

(10) انظر أيضا المطرب لابن دحية : 99.

(11) الذيل والتكملة 5 : 170.

ونسبته إلى ابن لبّال، فقد تحدّث على سبيل الاستطراد عن حروف الزيادة والكلمات أو العبارات التي تجمعها ونقل ما ذكره من أنه يجمعها قولك : «اليوم تنساه» وجواب المازني للمبرد عندما سأله عنها بهذا البيت :

«هَـــويتُ السِّمـــانَ» فَشَيَّبْنَنِـــي وما كُنْت قِدْماً «هَويت السّمانا»

ثم أورد بيت الشاعر عبد المجيد ابن عبدون فيها وهو :

سَأَلْتُ الحروفَ الزّائداتِ عَنِ اسْمِها فَقَالَتْ وَلَمْ تَكْذِبْ : أَمانٌ وَتَسْهيلُ»

قال ابن دحية : «وهي أحسن من جميع الألفاظ التي جمعوا فيها حروف الزوائد لما فيها من عذوبة اللفظ وسهولة النطق وحسن التفاؤل»[12] وانتصار ابن دحية للأندلسيين ودفاعه عنهم وتفضيله إياهم واضح في كتابه المطرب[13]، والذي يهمنا الآن هو ما جاء في هذا الكتاب بعد ما ذكرته، قال : «وقرأت بمدينة شريش شذونة على فارس الفقه والنحو والشعر القاضي العدل أبي الحسن علي بن أحمد ابن لبال الأُمَيِّي[14] في كتاب «المحكم، في حروف المعجم» وذكر حروف الزيادة وذكر ما تقدم من قولهم : «اليوم تنساه» التي هجاؤها : الهمزة في الألف الأولى، واللام والياء والواو والتاء والنون والسين والألف الساكنة والهاء. و«سالتمونيها» عشرة أيضاً : السين والهمزة واللام والتاء والميم والواو والنون والياء والهاء والألف، وزاد في كتابه : «أسلمني وتاه» وهي أيضا من الألفاظ المستعذبة إلاّ أنها لا تدخل في الوزن، وتفسيرها : الهمزة الأولى والسين واللام والميم والنون والياء والواو والتاء والألف والهاء، ولشيخنا فيها جمعان ذكرهما في كتاب المحكم له» ولا نستطيع الآن معرفة طبيعة هذا التأليف، ويبدو من عنوانه أنه عبارة عن رسالة في حروف المعجم والاختلاف الواقع في ترتيبها بين أهل المشرق والمغرب وأصحاب المعاجم ولعلّ آبنَ لبّال جمع تحت هذا العنوان ما نظمه الناس في ترتيب حروف العين والصحاح وغيرهما من المعاجم[15].

---

(12) المطرب : 181.

(13) نفسه : 145.

(14) نفسه : 181 والأَمَيِّي كالأموي.

(15) انظر بعضها في الذيل والتكملة.

وقد عرض المقرى في نفح الطيب إلى حروف الزيادة وما ركّبه الناس في ضوابطها فذكر أن الناس أكثروا في انتقاء الكلمات الضابطة لها، وأشار إلى أن ابن خروف[16] جمع فيها اثنين وعشرين تركيبا، ولم يشر إلى ما جمعه ابن لبال في كتابه المذكور، ثم أورد المقري مائة وأربعة وثلاثين تركيبا وقال : «وقد جمعت في المغرب زيادة على ما تقدم، وكنت قدّرت [أن أؤلف] رسالة فيها أسميها : «إتحاف أهل السيادة، بضوابط حروف الزيادة»[17].

ومهما يكن من أمر فقد كان ابن لبّال لغويا ضليعا، ولو وصل إلينا كتابه المذكور وشرحه على مقامات الحريري لتوسّعنا في دراسته لغويّاً، وقد نعته بهذه الصفة بعض تلاميذه ومنهم ابن دحية في المطرب، فقد أورد قول الشاعر ابن عمّار :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أُحْظَيْتَنِي بِحُضورِهـا ... فَـبِتّ سَميراً للسَّنـاءِ وللسّنـا
أعَلِّلُ نَـفْسي بِالْمَكَـارِمِ والْعُـلاَ ... وَأُذْنِـي وَكَفّـي بالغِنـاءِ وبالْغِنَـى

ثم قال : «قوله : للسناء وللسنا» السّناء بالمد : المجد والشرف، والسنا : مقصور : الضوء، قال الله تعالى : ﴿يكادُ سَنا بَرْقِه يَذْهبُ بِالأَبصار﴾ وقوله : «وأذني وكفّي بالغِناء وبالغِنى» الغناء، بالمدّ : الصوت. قاله اللغويون، فَمِمّا أنشدنيه اللغوي النحوي القاضي العدل أبو الحسن علي بن أحمد الأمّي :

غِنـاء الصّوت مَمْـدودٌ ... لِما يُسْتَجْلَب الطَّـرَبُ
وكل غِنـًى فَمَـقْصورٌ ... كَذا نَطَقَتْ بِهِ ٱلْعَرَبُ»[18]

وقد استند السيوطي على هذا فذكر ابن لبّال في كتابه : بغية الوعاة، في طبقات اللغوين والنحاة[19].

4 ــ شعره ونثره :

قال ابن عبد الملك : «وكان يقرض مقطّعات من الشعر يجيد فيها، وبينه وبين

(16) لعله ابن خروف اللغوي النحوي المشهور شارح الكتاب وغيره.
(17) نفح الطيب 3 : 454-457.
(18) المطرب : 39-40.
(19) بغية الوعاة : 328ط، الخانجي وج 1، ص 146، تحقيق أبو الفضل إبراهيم.

جماعة من أدباء عصره مخاطبات أدبية نظماً ونثراً تدلّ على متانة أدبه»[20].

وقال أبو إسحاق إبراهيم البونسي في كتابه كنز الكتاب :

«وكَانَ له نظْم كنِظام الجواهرِ، وابتسام الأزاهِر، وله في مَيْدان الكلام المطبوع سبْق وظُهور، ومعرفة بسُهوله وحُزونه مشهور.

وقد أثبتت منه في هذا المجموع ما ترتشفه الأنفس الصّادية ماء نميراً، وتتخذه الآذان سميرا، ويملأ القلوب سروراً، والعيون بهجة ونورا.

وله قصائد سلطانيات، ومقاطع إخوانيات، ومزدوجات من النظم والنثر مطبوعات، في أوصافٍ شتّى ومعان مختلفات طاب نشرها، وفاح عنبرها، أُظْهَر من الفجر إذا تمكّن الإسْفار، وأنْور من البدْر ليلة الإبدار»[21].

أمّا مخاطباته الأدبية ورسائله الإخوانية فلم يصل إلينا شيء منها فيما وقفنا عليه، وأمّا شعره فقد بقيت منه بعض القصائد والمقطعات في أغراضٍ متنوّعة.

إن هذا الشاعر الحسيب والفقيه الورع الزاهد الذي أصبح قبره في شريش مزاراً يتبرك به[22] كانت تهزه أريحية الأدب فينقاد لدواعي القول البريء وينظم في أغراض الكلام المباح فله غزليات حلوة وخمريات عذبة، ولعلّه قالها من باب الأريحية أو على سبيل الرياضة كما يعبر المعري، وله شعرٌ في وصف الطبيعة، ومتنزّهات بلده شريش، كوصف التنزّه في النهر بالزوارق، ووصف متنزّه «الجانة» ووصف زمن العصير، وله مقطعات في الألغاز، ووصف الأدوات الحضارية كالدواة والمقص وغير ذلك.

أما شعره في الحنين إلى الديار المقدسة والشوق إلى زيارة قبر المصطفى فهو ينسجم مع تدينه وورعه وزهده.

وقد ذكر أبو إسحاق البونسي كما رأينا أن لابن لبال قصائد سلطانيات ولكن

(20) الذيل والتكملة 5 : 170.

(21) كنز الكتاب : 164.

(22) الذيل والتكملة 5 : 171.

لم يصل إلينا شيء منها، ونحسب أن خصال الزهد والورع والهرب من المناصب تتنافى مع مدح السلاطين إلا أن يكون شارك بشيء في بعض المناسبات على سبيل المجاملة، ولعل القصيدة التي راجع بها الرّصافي ابن لبال الشريشي تشير إلى هذا، يقول الرصافي في هذه القصيدة :

يقولُ أناسٌ : لَوْ رَفَعْتَ قصيدةً لأدْرَكْتَ حَتْماً في الزَّمَانِ بِهَا أَمْرا
وَمِنْ دونِ هذا غيـرَة جاهِلِيّـةٌ وَإنْ هِيَ لَمْ تلزم فَقَدْ تلزمُ الْحُرّا
أَلَمْ يَأْتِهِمْ أنّي وَأَدْتُ بِحُكْمِها بُنَيّاتِ صَدْرِي قَبْلَ أن تَبْرَح الصَّدْرا
مَتى أَرْسَلَتْ أَيْدِي ٱلْمُلُوكِ هِبَاتِهَا وَلَمْ يوصِلُوا جاهاً وَلَمْ يُجْزِلُوا ذُخْرا
فَقَدْ سَرّنِي أنّي حَرَمْتُ عُلاَهُمُ حُلَىً مُحْكَماتٍ تُخْجِلُ الأَنْجُمَ ٱلزُّهْرا[23]

ونحسب أن الرصافي يخاطب زميله هنا بما يوافق مذهبه ومسلكه وإلا فإن للرصافي مدائح في بعض الملوك والسادة والرؤساء[24].

وذكر ابن سعيد في المغرب آخر ترجمته لابن لبال ما يلي : «وله أمداح وتشوق في النبي ﷺ»[25]، ولكننا لا نجد من هذه الأمداح والأشواق إلا قصيدةً واحدة في التشوق إلى الروضة الشريفة، وبقيةَ قصيدةٍ حجازية يحثّ فيها حجاج بلده على مواصلة السّرى ومباعدة الكَرَى، ويبدو أن من هذه القصيدة بيتين وردا منفصلين يشكو فيهما وهن العظم وتقوس الظهر[26]، ومعنى هذا أنه كان يومئذ قد فقد الاستطاعة الجسدية.

ويبدو أن المقطّعات شكلاً الإخوانيات مضموناً هي أغلب شعره، وهذا ما أكده ابن عبد الملك المراكشي وقد وصفها بالجودة والمتانة[27]، ونعت ابن دحية شيخه ابن لبال بأنه من فرسان الشعر وأثبت بعض مقطعاته في كتابه المطرب[28] ويقول الرصافي البلنسي ــ وهو من فحول الشعراء في هذا العصر ــ في وصف قصيدة لابن لبال :

(23) ديوان الرصافي : 75.
(24) نفسه : 33، 54، 58، 80، 87، 120، 127.
(25) المغرب 1 : 304.
(26) انظر الملحق رقم 1.
(27) الذيل والتكملة 5 : 170.
(28) المطرب : 40، 97، 98، 99، 181، 182.

حباني على بعد المدى بتحية أرى غُصُني رطْبَ المَهَزِّ بها نَضْرا
برائية لم أدر عند اجتلائها هي الدّرّ منظوما أم الزَّهْرُ مفترّا[29]

وممن سعى إليه في شريش لسماع شعره وغيره والد أبي الحسن علي بن سعيد وابن دحية[30] وممن أورد شعره في مختاراتهم ابن سعيد في المغرب ورايات المبرزين[31] والشقندي في كتاب الطُّرف[32] وابن الأبار في تحفة القادم[33]، ولما أورد هذا — فيما يروي الصّفدي — قول ابن لبال في وصف النار :

فَحْمٌ ذكا في حَشاهُ جَمْرٌ فقلْتُ مسْكٌ وجُلّنارُ
أوْ خَدّ مَنْ قَدْ هَوِيتُ لَمّا أطَلّ مِنْ فَوْقِهِ الْعِذارُ

علق عليهما بقوله : «قَصّرَ عَنْ قول أبي محمد بن صارة[34] في هذا المعنى :

وَسَافِرةٍ تَنْضو الدُّجَى مِنْ قَميصِهِ وقَدْ ضربَتْ من فَجْرها بعَمود
إذَا ما بدَتْ كِدْنا لإفْراطِ عُجْبِنا بِها نَتَلَقّى وَجْهَهَا بسُجودِ
دَفَعْنا بِهَا فِي صَدْرِ نَكْباءَ صَرْصَرٍ وَقَدْ آذنَتْ أرْواحُنا بِخُمودِ
يُقابِلُنا مِنْ فَحْمِها تحتَ جَمْرها خدودُ عَذارَى في براقِعَ سودِ»[35]

وقد ردّ الصفدي على ابن الأبار بما يلي : «قلت : ما قصّر [ابنُ لبال] والذي قصّر [هو] ابن صارة، فإنّ العِذار فوق الخدّ الأحمر أقرب للتشبيه من خدود العذارى تحت البراقع لأنّ البراقع ساترة للخدود والخدُّ والعِذار يبدوان معاً»[36] ونظنّ أنه ليس ثمّة تقصير أصْلاً، فلكل من الشاعرين اجتهاده في صورته الشعرية، وإذا تركنا أمر التشبيه جانبا فإن ابن صارة — والحق يقال — أشعر في القطعة المذكورة وغيرها من ابن لبّال.

---

(29) ديوان الرصافي : 77 وتحفة القادم : 75.
(30) رايات المبرّزين : 52.
(31) المغرب 1 : 304 ورايات المبرزين : 53.
(32) كتاب الطرف مفقود، وينقل عنه ابن سعيد في المغرب والرايات والمقتطف.
(33) تحفة القادم : 100–101.
(34) ترجمته وأشعاره في الذخيرة والقلائد والمغرب والتكملة والنفح وغيرها.
(35) الوافي بالوفيات، مخطوط.
(36) نفسه.

وقد أورد الصفدي أبياتا أخرى من شعر ابن لبال وعقب عليها بهذه العبارة : «قلت شعر جيّد»[37].

أما أبو إسحاق البونسي بلدي ابن لُبّال وتلميذ تلاميذه فقد كان معجباً بشعره وأطنب في وصفه ومدحه، ويمكن أن نعتبر كلامه تسجيلا أيضا لآراء غيره من أهل ذلك العصر؛ وقد رأينا أن نجمع ما وقفنا عليه من شعر ابن لبال ونضعه في ملحق خاص آخر هذه الدراسة.

5 ـــ روضة الأديب، في التفضيل بين المتنبي وحبيب

لقد انفرد ابن عبد الملك بذكر هذه الرسالة هي والمقدمة في العروض المذكورة قبل، وهذه الروضة عبارة عن مقالة وصفها ابن عبد الملك بأنها «مقالة نبيلة»[38] ومنْ حسن الحظ وعجيب الصدفة أن تصلنا هذه الرسالة التي لو لم يسمّها ابن عبد الملك لما عرفناها ولا اهتدينا إليها. وقد وجدْنَاها ضمن مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ورقم المجموع 3172ك، وهو يشتمل على أوراق من الروض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي العددي وورقات من رائق التحلية وفائق التورية، وورقات في سرقات البحتري من أبي تمام مقتبسة من الموازنة للآمدي، وورقات من قراضة الذهب لابن رشيق، ورسالة ابن لبال تنقصها الورقة الأولى المشتملة على جزء من الديباجة كما تنقصها ورقة أخرى من صلبها وقد اختلطت أوراقها وتداخلت مع أوراق الروض المريع وقراضة الذهب ورائق التحلية، وهذا يبدو من أرقام الصفحات التي أثبتناها كما هي الآن في المجموع المذكور. وتواريخ النسخ في هذا المجموع تعود إلى سنة ثلاث بعد الألف الهجرية وقد كتب بالحروف تارة وبالأرقام تارة أخرى، ولا ذكر لاسم الناسخ، ويبدو من أخطاء النسخ المتعدِّدة أنه ليس من أهل العلم والضبط، وقد جاء في آخر الرسالة ما يلي :

تم التأليف والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله أجمعين، ضحوة يوم الأربعاء غرة ربيع الثاني سنة 1003.

نخرج من قراءتنا للرسالة بالملحوظات الآتية :

---

(37) نفسه.

(38) الذيل والتكملة 5 : 170.

أ ــ أنها في الأصل إملاء من ابن لبال على أحد تلاميذه ولهذا نجد اسمه يذكر دائماً مصحوباً بتحليته والدعاء له كهذه العبارة : «قال الفقيه المشاور الأستاذ أبو الحسن ابن لبّال أدام الله رفعته» وقد تكرر مثل هذا في أول كل فصل من فصول الرسالة.

ب ــ يتميز أسلوب الرسالة بالتزام السجع والتقيد به من أول الرسالة إلى آخرها، ومن شأن هذا الأسلوب المسجوع أن يحدّ من امتداد النفس، ويؤثر على استرسال القول، ويخرج بالنقد من مجال التفصيل والتحليل إلى مجال الإجمال والتعميم، وهذا هو الأسلوب الغالب في الرسائل والمقامات النقدية الأندلسية والمغربية كرسائل الانتقاد لابن شرف ومقامات السرقسطي وغيرهما.

ج ــ جل هذه الرسالة آراء وأقوال لشيوخ ابن لبّال وشيوخ شيوخه أو نقول من بعض كتب النقد وأمهات الأدب، فأما الشيوخ فهم علي بن مسلم الإشبيلي وأبو بكر بن فندلة والأعلم الشنتمري وأبو الفضل ابن الأعلم وأبو مروان ابن سراج.

وأما كتب الأدب والنقد التي نقل منها فهي العمدة لابن رشيق والأمالي لأبي علي القالي والذخيرة لابن بسّام ومقامات السرقسطي والموضحة للحاتمي والكامل للمبرد وغيرها.

وله تعقيبات على هذه الأقوال والنقول تفتتح دائماً بمثل هذه العبارة : «قال الفقيه الأستاذ المشاور أبو الحسن ابن لبال أدام الله عزه» وهي تعقيبات يؤيد بها مذهبه في المفاضلة بين الشاعرين.

د ــ الرسالة ليست موازنة منصفة بين أبي تمام والمتنبي أو مفاضلة عامة بينهما، وإنما هي من أولها إلى آخرها تفضيل صريح للمتنبي على الطائي، ولذلك اقتصر ابن لبال على الآراء والأقوال التي تشهد لكلامه وتخدم وجهه نظره، ويبدو أن لرسالة ابن لُبّال علاقة مّا برسالة عنوانها : «نزهة الأديب، في سرقات المتنبي من حبيب» وقد ذكرها البديعي في الصبح المنبي، ونسبها إلى من سماه بابن حسنون المصري[39]، ويفترض بلاشير أنه من أهل القرن الخامس[40] وظن د. عبد الله

(39) الصبح المنبي 1 : 426 (بهامش شرح العكبري).

(40) انظر : ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين، ترجمة أحمد بدوي ص 32.

الجبوري أنه هو عبد الله بن الحسين بن حسنون البغدادي نزيل مصر[41]، ولم ينتبه إلى أن هذا توفي سنة ست أو سبع وثلاثمائة أي قبل أن يظهر المتنبي، ويبدو لي أن في الاسم تحريفاً وأن كلمة المصري محرفة عن الحميري وأن الأمر ربّما يتعلق بابن حسنون الحميري[42] معاصر ابن لبال، ولكن هذا مجرد افتراض لأن التأليف المذكور وهو مفقود لم يشر إليه في مكان آخر.

ومهما يكن الأمر فإن ابن لبال في تفضيله أبا الطيب على أبي تمام مسبوق في الأندلس بأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي مؤلف كتاب «الانتصار لأبي الطيب» وهو كتاب ضائع يدل اسمه والنقول القليلة على إعجاب صاحبه بالمتنبي وتعرضه لبعض معايب أبي تمام[43]، ويبدو من رسالة ابن لبال أنه لم يقف على هذا الكتاب فلو اطلع عليه لاحتج بكلامه أو أشار إليه، والظاهر من رسالة ابن لبال وغيرها أنّ تفضيل المتنبّي على أبي تمام هو الاتجاه الغالب عند الأندلسيين.

هـ ــ وهو يفضّل المتنبّي على أبي تمام بما يلي :

ــ أنه أطبع من أبي تمّام في رأي النقّاد وهو بذلك أشعر «لأن ما كان من الشعر طبعاً لا تكلّفاً جاء أحسن وما كان منه تكلّفاً جاء أصعب وأخشن»[44]. وألفاظ هذا الكلام تشي بوقوف ابن لبال على ما ذكره الجرجاني في موضوع المطبوع والمصنوع أو المتكلّف من الشعر والتكلّف الذي يعاب به شعر أبي تمّام وإن لم يشر إلى ذلك.

ــ لما في شعره من «الغزل المطرب، والتشبيب المونق المعجب، حتى ليذهب بالورع، وربما أوقع من ليست له حصانة فيما يعلق به من الدّرَن والطَّبَع»[45] ولهذا كان الأعلم الشنتمري ينهى طلبته عن قراءة شعر أبي الطيب في شهر رمضان.

(41) له ترجمة في تاريخ بغداد 9 : 442–443 وغاية النهاية 1 : 415، وانظر كتاب المتنبي في آثار الدارسين.

(42) ترجمة أبي بكر ابن حسنون الحميري في الذيل والتكملة 6 : 452 والتكملة : 574 وغاية النهاية 2 421، وفي ترجمته أنه لازم ابن القفال في العربية والأدب ولكن لم يذكر له فيها تأليف، ويستفاد من ترجمته أنه اشترك مع ابن لبال في بعض شيوخه.

(43) انظر أحكام صنعة الكلام.

(44) انظر النص في الملحق رقم 2.

(45) انظر النص في الملحق رقم 2.

ــ «ولما فيه من الاستغراق في المدح والمبالغة والغوص على المعاني الرائقة والأغراض البديعة الفائقة»[46] ويبسط ما ذكره فيقول : «وكلّما جاوز الشّاعِر في المدح وغلا، وتربّع منصة المبالغة وعلا، وأرقّ الغزل، وأضاع نفسه بين العذر والعَذَل، وتجاوز الصدق إلى الكذب، والجدّ إلى اللعِب، كان أشعر، وأسمع بدواعي ما ينتحله وأبصر؛ ألا ترى أن الشعر لو كان كذبه صدقاً وباطله حقّاً، وكان الوصف فيه على الظاهر لا على التأويل لسخف»[47]. وَواضح أن ابن لبّال يؤيد هنا أصحاب الرأي القائل : «أعذب الشعر أكذبه». ويذهب مع المعجبين بالمبالغة والغلو، ومن المعروف بأن أبا الطيب هو «أكثر الناس غلواً، وأبعدهم فيه همّة، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتاً واحداً وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غني وله في غيره مندوحة»[48].

ــ أن الشعراء يفضّلون أبا الطيب على أبي تمّام وهم أعرف بصناعتهم، «فَمِن أعلم الناس بالشعر الشعراء لأنه من صناعتهم، ألا ترى أنّ من عامل خيّاطاً فأفسد عليه ثوبه أو أبى هو من إنصافه إن كان لم يساومه فاختلفا في ذلك أو تشاجرا وارتفعا إلى حاكمٍ من الحكّام إنّما يوجّه حكمَهما في القيمة إلى أهلِ تلك الصنعة وكذلك العطّار والنجار والخراز وغير ذلك»[49].

ونلمح في هذا الكلام مسحة الفقيه الأندلسي القاضي ابن لبال، وقد جلب في هذا الموضع أحكام بعض الشعراء وأقوالهم في غيرهم وتطرق إلى اللفظ والمعنى والطبع والصنعة بين أبي تمام والمتنبّي ورد على الحاتمي في تحامله على أبي الطيب.

ــ شعر المتنبي أقرب إلى الوضوح في معناه والسهولة في لفظه من شعر أبي تمام، ولهذا كان الأديب اللغوي ابن سراج القرطبي لا يقرىء في المجلس الواحد من شعر أبي تمّام إلا ثلاثة أبيات، بينما كان يقرىء من شعر المتنبّي خمسة أبيات.

وإذا كان ابن لبال سار على هذا النحو في رسالته بتفضيله المتنبي على أبي تمّام

---

(46) انظر النص في الملحق رقم 2.

(47) انظر النص في الملحق رقم 2.

(48) العمدة 2 : 63.

(49) انظر النص في الملحق رقم 2.

فإنه لم يشأ أن يختم رسالته دون أن يضع أبا تمام في المرتبة التي يراها فقال : «ومع هذا فلا أخلي أبا تمّام من فضيلة، ولا أعريه عن خصلة جميلة، بل أعتقد أنه شاعر إحسان، وفارِس هذا الشان، وهو مع أبي الطيب كفرسي رهان، في عدة أبيات، وكثير من المقطعات»[50].

وبعد فإن هذه الرسالة لا تأتي بجديد في ميدان النقد الأدبي، وهي ترجع في معظمها إلى التراث النقدي الذي كان متداولاً في القرن السادس الهجري بالأندلس، وتكمن قيمتها عندنا في كونها تمثل حلقة من حلقات الصراع النقدي حول أبي تمام والمتنبي، وقد كانت هذه القضية تشغل الخاصة والعامة في الأندلس كما يبدو من حكاية أدباء بطليوس الذين اختلفوا في الموضوع واستقر رأيهم على أن يسألوا رجلاً جاهلاً عن أي الشاعرين أفضل «فأيهما أجرى الفال على لسانه، أجمعنا على إحسانه واستحسانه، فخرجوا متناحين خارج المدينة وإذا بحراث يحرث...» فسألوه أي الرجلين أشعر المتنبي أم حبيب، فقال أشعرهما الذي يقول :

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرتِ أنت وهُنّ منكِ أواهِلُ[51]

هكذا كانت هذه القضية الأدبية تشغل بال الناس يومئذ على نحو ما ينشغل بعض الناس في زمننا بالمفاضلة بين فريقين في كرة القدم !.

ولهذه الرسالة قيمة أخرى تتجلى في اطلاعنا على شيء من تقاليد الدرس الأدبي في الأندلس كأوقاته وحدوده وما يتعلق بذلك مما سبقت الإشارة إليه.

تلكم هي آثار ابن لبّال الشريشي التي وصل إلينا عينها أو خبرها، وقد ظلت تروى وتقرأ إلى آخر أيام المسلمين في الأندلس، جاء في برنامج المنتوري المتوفى سنة 834هـ ما يلي : «تآليف القاضي أبي الحسن علي بن أحمد بن علي بن لبّال الأميّي الشريشي ومنظوماته. حدثني بها القاضي أبو بكر بن جزي عن أبيه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي الخطاب بن خليل عنه (أي عن ابن لبّال)»[52].

---

(50) انظر النص في الملحق رقم 2.

(51) انظر النص في الملحق رقم 2.

(52) برنامج المنتوري : 186 مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1578.

والقاضي أبو الخطاب بن خليل عمدة هذا السند هو محمد بن أحمد بن خليل اللبلي الإشبيلي المتوفّى سنة 652هـ عن سن عالية، وهو من بيت بني خليل السكونيين، وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه يروي عن ابن لبّال بالإجازة قال : «وكتب إليه مجيزاً و لم يلقه من أهل الأندلس وبر العدوة أبو بكر ابن صاف وأبوا الحسن : ابن لبال ونجبة..»[53] ومن إخوة أبي الخطاب هذا أخ يشاركه في الاسم وكنيته أبو عمر، وهو يروي قراءة أو سماعاً عن أبي الحسن ابن لبال[54].

ونقدّر أن ثمّة أسانيد في آثار ابن لبّال رويت عن تلاميذه الآخرين كأبي علي الشلوبين[55] وأبي محمد عبد الله ابن حوط الله[56] وشقيقه أبي سليمان داود ابن حوط الله[57]، ولكنها لم تصلْ إلينا.

---

(53) الذيل والتكملة 5 : 631.

(54) نفسه 5 : 635.

(55) برنامج المنتوري : 206.

(56) نفسه : 197.

(57) نفسه : 197.

الملحق الأول

شعــــــره

حرف الهمزة

وقالَ يُخاطبُ بعضَ إخوانِه ــ وهُو الأديبُ الْكاتِب أبو ٱلْوَليدِ يونُس ٱلْقَسْطلّي ــ[1] :

يـا خَليلَـيَّ بالـرُّكابِ سُحَيراً عَرِّجـا بالْجَزيـرَةِ ٱلْـخَضْراءِ
حَيثُ هزّ ٱلغَديرُ عِطْفَيْه ممّـا أَفْلَتَتْـهُ أَنامِـلُ ٱلْحَصْبـاءِ
وانْبَـرَى يَسْتَحيـلُ بَيْـنَ شَواطيـهِ زُلالاً مِـنْ دُرَّةٍ بَـيْضاءِ
وَوَشى ٱلْقَطْـرُ جانِبَيْـهِ فَباهَـى بِأَزاهيـرِه نُجـومَ السّمـاءِ
وانْثَنى مِعْطفُ ٱلْقَضيب اخْتيـالاً لِغِنـاءِ ٱلْحَمامَـةِ ٱلْوَرْقـاء
وَتَرَاءَى أَبـو الْوَليـدِ فخَـرّتْ لِسَنـاهُ كَـواكبُ ٱلْجَـوْزاء
ورَقى رُتْبـةَ الـوزارةِ حَتّـى حَـلّ تاجـاً بمَفْـرق ٱلْـوُزَراء
فَهنيئـاً لكِ الْجَزيـرَةُ مـاذَا حُزْتِ مِنهُ مِن السَّنا والسَّنـاء
فاحفَظيـهِ مِـنَ الْحـوادثِ حتّـى تُنْجـزي بَيْنَنـا وُجـوهَ اللّقـاءِ[2]

حرف الباء

وقالَ أيضاً وكُلِّف ذلِك في فَتىً وَسيمٍ جَزّار، كَأنّه كَوْكبٌ دُرِّي منْ كواكِب ٱلأَسْحار، قَدْ أَطلَعَه ٱلْحُسْنُ شَمْساً في فَلَكِه، وَأَوْمَأَ كُلُّ مَن رآهُ إِلَيْهِ بِتَمَلُّكِه،

---

(1) قال ابن الأبار في ترجمته : «يونس بن محمد القسطلّي الأديب من أهل الجزيرة الخضراء، يكنى أبا الوليد، أخذ عن أبي حفص بن عُذْرة، وصَحِبَه مدّة، وهو أحدُ تلاميذه الجلّة، وكان من كبار البلغاء، وفحول الشعراء، متصرّفا في فنون الآداب وأساليبها، وقد كتب لبعض الولاة وصنّف. كتبت عن أبي سليمان بن حوط الله بعض شعره وسمعتُهُ منه. وتوفي بقصر عبد الكريم سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسيق إلى الجزيرة الخضراء فَدُفِنَ بها»، انظر فيه وفي بعض أشعاره أيضا : زاد المسافر : 15–18 والمطرب : 240–241 والمغرب 1 : 328 والحماسة البياسية (قطعة مخطوطة).

(2) كنز الكتاب للبونسي (مخطوط : 164–165).

لاَيَنْفَكُّ دَمْعُ عَاشِقِهِ عَنْ أَنْ يَنْهَلَّ وَيُسْكَبَ، وَلاَ قَلْبُهُ عَنْ غَرَامٍ وَنَصَب، يَخْلِطُ جِدَّهُ باللَّعِب، وَيَضْحكُ بَيْنَ ٱلْعُجْبِ وَٱلْعَجَب :

يـا هِـلالاً قَـدْ تَبَـدّى فَـوْقَ أَزْرارِ ٱلْجُيـوب
وَقَضيبـاً يَتَثَنّـى فَـوْقَ أَحْقـافِ ٱلْكَثِـيب
كُنْ كَما شِئْتَ وَدَعْني فيكَ مِنْ قَوْلٍ كَذُوب
لَسْتَ جَـزّاراً وَلَكِـنْ أَنْتَ جَـزّارُ ٱلْقُلُـوب[3]

حرف التّاء

قالَ يَصِفُ ٱلتِّين ٱلْقوطِي[4] :

كأنّ جَنَى القُوطِيّ في رَوْنَق الضّحَى وَقَدْ حَمَلَتْهُ رَاحَةُ ٱلْوَرَقَاتِ
نُهودُ عَذَارَى زُحْزِحَتْ عَنْ مَقَرِّها فَقَامَتْ على الأَطْراف والْحَلَمَاتِ[5]

حرف الحاء

وقال رحمه الله يتغزّل :

أَلَمَّتْ وما غيرُ الوِشاحِ وِشاحُ وَلاَ غَيْر أطراف الثُّدِيِّ رِماحُ
وَلاَ غيْر ما فَوْقَ الرَّوادِفِ بانَةٌ وَلاَ غيرُ ما فَوْق الجيوب صباحُ
ولا وَردَ إلاّ ما حَوتْ وَجَناتُها ولا غيْرُ منظومِ الثّغور أقاحُ
فَبِتْنا وما تحتَ الوشاحِ محرّمٌ علينَا وما فوْقَ الوشاحِ مُباحُ[6]

---

(3) كنز الكتاب : 167 (مخطوط)، وقد يستغرب هذا الغزل بالمذكر من فقيه ورع كابن لبال ولكننا نحسب أنه مجرد مجاراة في القول لبعض معاصريه من أهل الأدب ومنهم على سبيل المثال الرصافي البلنسي الذي نجد في شعره وصف الغلام الرفاء والصفّار والنجّار والحائك وغيرهم (راجع ديوانه).

(4) التين القوطي : من أنواع التين وكان هو والتين الشعري من الأنواع المشهورة بإشبيلية وشريش.

(5) شرح مقامات الحريري لأحمد بن عبد المومن الشريشي 3 : 65، نشر خفاجي.

(6) كنز الكتاب : 164.

وَقَالَ معارِضاً ٱلبُحْتري :

يـا بـأبي ظبـيٌّ إذا مارَنـا أُثخِنَ قَلْبي وفُـؤادي جِـراحْ
يفترُّ عنْ طلـعٍ وعـنْ جوهـرٍ وفِضّة أو خَـبَبٍ أو أقـاحْ[7]

حرف الدال

وقال في راءات الصيف :

عِنـدي فديـتكَ راءاتٌ ثمانيـةٌ ألقى بها الحَرَّ إن وافَى وإن بَرَدا
رَفٌّ ورَوْح ورَيْحانٌ وريقُ رشاً ورفرف ورياضٌ ناعـم ورِدا[8]

وقال يتشوق إلى الروضة المقدسة الطاهرة، ويسلّم على محمّد سيد ولد آدم في الدنيا وسيد الناس في الآخرة، صلّى الله عليه ما زهرت الكواكب ودارت الأفلاك الدائرة :

سَلامٌ وَلا أقْرَا سلاماً على هِندِ صرفتُ إذاً مَسْرايَ عن مَسْلك الرشْدِ
على قَمَرٍ لو أطلعتهُ يدُ الثّرى لقصّر عن لألائه قمرُ السّعـدِ
وأرْبَى على نورِ الغزالة نـورُه كما يفضل الحُرُّ الكريمُ على العَبْدِ
فَطَابَ به تُرْبُ الضريح بِطيبـةٍ فيعبَقُ عن مسكٍ نديّ وعن نَدِّ
وَيَضحكُ عن روضٍ تُداني يد الصّبا به صفحة السّوسانِ مِن صفحةِ الوردِ
فَطوبى لمَنْ أضحى يمرّغ لوعَةً بتربة ذاك القَبْر خدّاً إلى خَدِّ
نبـي عليـهِ مـن تلألـؤ نـورِه تَلألُؤ برقٍ أسرجَتْهُ يـدُ الرّعْـدِ
نما من قريشٍ في ذؤابة هاشمٍ فما شئت من فضلٍ عميمٍ ومن مجد
سلامٌ عليـهِ مـا تغنّت حمامـةٌ وفاحَ ذكي المسلكِ من جنّة الخُلْدِ
وما أنشدَ المشتاقُ إن هبّت الصّبا: «ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجدِ»[9]

---

(7) المصدر نفسه 1 : 62 وهو يعارض قول البحتري :

كَأنّمـا يَـبْسِمُ عَـنْ لُؤلُـؤ مـنضّدٍ أو بَـرَدٍ أو أقـاحْ

قال الشريشي شارح المقامات : فزاد عليه بوصفين.

(8) المصدر نفسه 3 : 42.

(9) المطرب : 97، والعجز الأخير مضمن وهو صدر بيت لابن الدُّمينة وعجزه :

فقد زادني مسراك وجدا إلى وجد

وقال يصف البهار، وهو الذي يسمّيه أهل المشرق نرجساً :

وبهارٍ يحكى كؤوس لُجينٍ حملتها أناملٌ من زبرجَدْ
سامَرَتْها الْكواكِبُ الزّهْر حَتّى سَمَرَتْ وَسْطها كواكِبُ عَسْجَدْ[10]

وقالَ يُخاطِبُ آلأَديبَ أَبا الْعَبّاس أَحْمَد بْنَ سَيِّد[11] :

يَا سَيِّدي والزَّمانُ يَبْلَى وَعَهْدُ وُدّي لَكُمْ جَدِيدُ
إنْ فَرَّقَتْ بَيْنَنَا آللَّيَالِي فَوُدُّكُمْ فِي آلْحَشَا عَتِيدُ[12]

حرف الراء

وقالَ يَصِفُ حالَه في آلْكِبَر :

قَوّسَ ظَهْري المشيبُ والكبَرُ والدَّهرُ يا عَمْرو كُلُّه عبَرُ
كأنّني والْعَصا تدِبُّ معي قوسٌ لَها وهْي في يَدِي وَتَرُ[13]

وقال يصف نار الكانون :

فحمٌ ذكتْ في حشاه نارُ فقلتُ مسكٌ وجُلّنارُ
أوْ خَدُّ مَن قَدْ هويتُ لَمّا أطلّ من فَوْقه العِذارُ[14]

وقال في وصف ثَغر وخَصْر :

جلوتِ لنا شيئاً من الدرِّ عاطِلاً بعيشِكِ لِمْ جنّبتِه الجيدَ والنّحرا

---

(10) شرح المقامات للشريشي 1 : 54.

(11) المقصود به ابن سيّد الإشبيلي وله ترجمة في التكملة : 80 والذيل والتكملة 1 : 316–320 والمطرب : 200–202 والمغرب 1 : 257 وانظر أيضا : زاد المسافر : 52 وتحفة القادم : 59، 102، 74، 75 ورايات المبرزين : 48 ونفح الطيب 4 : 193–204، وهو يشتبه بابن سيد المالقي.

(12) كنز الكتاب : 165 (مخطوط).

(13) شرح المقامات للشريشي 1 : 96 وأوردهما بعد قول الشاعر :

تَقَوَّس بَعْدَ مرّ العُمْرِ ظَهْري وَداسَتْني اللّيالي أيَّ دَوْس
فَأَمْشي والْعَصا تَهْوي أمَامي كَأَنّ قوامَها وَتَرٌ لِقَوْسي

(14) نفسه 4 : 155 وتحفة القادم : 155 والوافي بالوفيات (مخطوط).

فقالَتْ ولم تكذِبْ خشيت سقوطَهُ   وأومت إلى فيها فنظّمه ثَغْــرا
كَذَلِكَ إنْ عَضّ السّوارُ بِمِعْصَمي   وَحَاولَ أَنْ يُدْمِيهِ حَمّلْتُهُ ٱلْخصْرا[15]

وَقالَ يُخاطِبُ ٱلْفَقيه ٱلقاضي أُخْيَل[16] :

سائِــلْ بغُرّتــه الهلالَ المُقمِــرا   أَشَذًى تفاوَحَ عَرْفُه أم عَنْبَــرا
وَسَل البراعَـةَ في أَنامِلِ كَفّــهِ   شذْراً يَصُوغُ بطِرْسِهِ أَمْ جَوْهَرا
أَمْ حالَت ٱلْقِرْطاسُ كافُوراً بِهَا   فَسَرَتْ تَمجّ عَلَيْهِ مِسْكاً أَذْفَرا
أَمْ صَدْرُ غانِيـةٍ تَمَـزَّقَ جَيْبُهــا   فَغَدَتْ تَحُوكُ ٱلْوَشْي فيهِ مُصَوّرا
وَلَعلّها رَأَتِ ٱلْوَشِيجَ لَدَى الوَغَى   فَحَكَتْ لِراحتِهِ ٱلْوَشيجَ الأَسْمَرا
يا مَنْ تَخَايَلَ مِنْ كتابةِ أخيلٍ   [زَهْـراً] تَدَرْهَـم نَـوْرهُ وتدنَّــرا
هَلاّ حَسِبْتَ بِهَا السَّماءَ صَحيفَةً   والليْلَ حبْراً والْكَواكِبَ أَسْطُـرَا
قاضٍ أَتَى والْحَقُّ غُصْنٌ ذَابِـلٌ   فَسَقَاهُ ماءَ ٱلْعَدْلِ حَتَّى أَثْمَـرَا[17]

وقال يصفُ ٱلْبَدْرَ :

انظُرْ إِلَى البَدْرِ في السَّماءِ وَقَدْ   حفّت بِحِقْوَيْـهِ الأَنْجـم الزُّهْــرُ
كأنَّــــه بِرْكـــــة مـــــفضَّضةٌ   حَفّ بِها مِـنْ جِهاتِهـا زَهْــرُ[18]

وَلَــهُ :

أَلْبَسَنــي حُلَّــةَ ٱلضّنــى قَمَـــرٌ   أَلْـبَسَهُ ٱلْـحُسْنُ حُلّـة ٱلْخَفَــرِ
أَرْسَلَ مِــنْ صُدْغِـهِ لِعــارِضِهِ   ذُؤَابَــةً تَــحْت لِمّــةِ ٱلشّعَـــرِ

---

(15) نفسه 1 : 195 وقال : أخذه من قول حبيب :

مَها الْوَحْشِ إلاّ أنّ هاتـا أَوانِسٌ   قَنا الخَـطّ إلاّ أنّ تِـلْكَ ذَوابِــلُ
مِنَ ٱلهيفِ لَوْ أَنَّ ٱلْخَلاخِيلَ صُيِّرَتْ   لَها وُشُحاً جالَتْ عليها ٱلْخَلاَخِـلُ

(16) هو أخيل بن إدريس الرندي كان من أغرب شخصيات عصره وأكثرهم تقلبا فقد كان كاتبا عند المرابطين ثم لما ثار ابن حمدين عليهم اشتغل عنده كاتبا ولما انتهى أمر ابن حمدين ذهب إلى بلده وتأمّر فيها مُدَيْدَةً ثم أخرج منها ولجأ إلى مراكش وولاه الموحدون القضاء في قرطبة ثم في إشبيلية. انظر ترجمته وأخباره في التكملة : 212 والحلة السيراء 2 : 241-244 والمغرب 1 : 335-336 والمن بالامامة : 224 وتحفة القادم : 81.

(17) كنز الكُتّاب : 164-165.

(18) كنز الكتّاب : 166 (مخطوط).

يَفْتَرُّ عَنْ فِضَّةٍ وَعَنْ بَرَدٍ ... وَعَنْ أَقاحٍ نَدٍ وعن دُرَرٍ[19]

وقالَ يَصِفُ الْهِلال، وأَخَذَهُ مِن ابْنِ ٱلْمُعْتَزِّ :

انْظُرْ إلى الْهِلالِ إذْ ... لاَحَ بَهِيَّ المَنْظَرِ
كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... وسْطَ لُجَيْنٍ أَخْضَرِ[20]

وقال يصِف متنزَّهاً بشريش يسمَّى إجانة :

أيا حَبَّذا إجانَةٌ كيفما اغْتَدتْ ... زمَانَ ربيعٍ أو زمان عَصيرِ
مذانبُ ماء كاللُّجين على حصًى ... كدُرٍّ بلا ثَقبٍ أَغَرَّ نثيرِ
ورملٍ إذا ما ابتلّ بالماءِ عِطْفُه ... غَنينا بِهِ عن عَنْبرٍ وَذَرورِ
وتينٍ كما قامتْ على حَلَماتها ... نهودُ عَذارى الزّنج فَوقَ صدورِ
كأنّ قِبابَ ٱلْخَزِّ فيها عَرائِسٌ ... على سُرُرٍ مفروشةٍ بحَريرِ[21]

وقال من قصيدة حجازية، وفي كنز الكتّاب أنه كتب بها إلى الحُجّاج صحبة الفقيه أبي بكر بن عبد الله بن حباسة الشريشي[22] :

متى أقولُ وقد كلّتْ ركائبُنا ... من السّرى وارتكاب البيدِ في البُكَرِ
يا نائمين على الأكوارِ ويْحَكُمُ ... شدّوا المطي بذكر ٱللّهِ في السّحَرِ
أما سمعتم بحادينا وقد سَجَعَتْ ... وُرْق الحمائمِ فوق الأيكِ والسَّمُر
هَذي البشَارة يا حُجّاجُ قد وَجَبَتْ ... غداً تحطّونَ بين الرُّكْنِ والحجَرِ[23]

وقال يصف حاله في الكبر :

لمّا تقوّس منّي الجسمُ عن كِبَرٍ ... وابيَضّ ما كَانَ مُسْوَدّاً مِن الشَّعَرِ

---

(19) تحفة القادم : 101 والوافي بالوفيات (مخطوط).

(20) المصدر نفسه 1 : 94 قال : أخذه من قول ابن المعتزّ :

أهلا بفطرٍ قد أنارَ هِلالُه ... فالآن فاغْدُ إلى المُدامِ وبَكِّرِ
وانظرْ إليْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قد أثقلَتْهُ حمولَةٌ من عَنْبَرِ

(21) المصدر نفسه 3 : 65 وانظر ما قيل في الإجابة : المغرب لابن سعيد (شريش).

(22) له ترجمة في التكملة : 531 والذيل والتكملة 6 : 310 ولوالده ترجمة في التكملة : 860.

(23) المطرب : 99، وكنز الكتاب : 165 (مخطوط).

جعلْتُ أمشي كأنّي نصفُ دائرَةٍ تمشي على الأَرْضِ أو قوسٌ بلا وَتَرِ[24]

حرف الزاي

وقال مُلْغِزاً :

معانقَــةُ العجــوز أشَدُّ عِنْــدي وأقْتَــلُ مــن معانقــة العجــوز
وما ريق العَجوز أمَرُّ عِنْــدي وَلا بألَذّ مــن بَـوْلِ العجــوز[26]

العجوز الأولى : المرأة المسنة، والثانية السيف، والثالثة الْخمر والرابعة البقرة، وبولها : لبنها.

حرف السين

وقال في وصف الخمر :

ومُدامَـةٍ لبستْ غِلالَـةَ نـرجسٍ وتنفّست في الكاس أيّ تنفُّسِ
باكـرتها والـورْدُ يوقظُـهُ النَّـدى وَتَبـلُّ خَدّيه عيـون النّـرجِسِ
والشمسُ تنظُرُ من وراءِ غَمامةٍ لَبِست من الكافور أحسنَ ملبَسِ
نبّهتُها بيـد المِـزاجِ فَأَصبـحتْ ترنــو إلي بأعيــنٍ لم تَنْــعَسِ
وتـورّدت حَتّى توقّـدَ كَأْسُهـــا فحسبتُها في الكفِّ جذوة مقْبس[26]

حرف الطاء

نُسِبَ إليه في المنتقى المقصور هذان البيتان :

تكاملت فيك أوصافٌ خُصصتَ بها فكلُّنــا بك مسرورٌ ومغتبـــط

---

(24) تحفة القادم : 100 والبدر السافر (مخطوط) والوافي بالوفيات (مخطوط).

(25) المطرب : 99 وشرح المقامات للجذامي (مخطوط).

(26) الشريشي 2 : 95.

فالسنّ ضاحِكةٌ والكفُّ مانِحــةٌ   والصدرُ متسعٌ والوجهُ منبسِطُ[27]

حرف الفاء

وقَالَ أَيْضاً :

هـاكَ مِنِّـي بَيْتـاً سَيَكْثُـرُ إنْ مِتّ عَلَـى أَلْسُنِ الـرُّوَاةِ اخْتِلاَفُــهْ:
إنَّمـا تَنْظُـرُ ٱلْعُيُـونُ لِشَخْصَيْـنِ لِمَـنْ تَرْتَجِيـهِ أَوْ مَـنْ تَخَافُــهْ[28]

وقال في معنى العِنَاق :

لاَ مِثْلُ ضَمِّي عَلِيّاً وهو يُتْحِفُني   سُلاَفَةً هِيَ بُرْءُ العاشِقِ ٱلدّنِفِ
عانَقْتُهُ وَرِداءُ ٱلْـوَصْلِ يَجْمَعُنَــا   حَتَّى الصَّباحِ عِناقَ اللاّمِ لِلأَلِفِ[29]

حرف القاف

وقــال :

نَشَرَتْ ثَلاَثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِها   لِتُظِلّني حـذَرَ الْـوُشاةِ ٱلرُّمَّــقِ
فكَأَنَّنِــي وَكَأَنَّهــا وَكَأَنَّـــهُ   صُبْحانِ باتا تَحْتَ لَيْلٍ مُطْبَقِ[30]

---

(27) نسبهما له ابن القاضي في المنتقى المقصور وذكر ابن خلكان له وجدهما منسوبين إلى أبي الشيص وكان ابن تومرت ينشدهما إذا أبصر عبد المومن، وفيات 3 : 238.

(28) كنز الكتاب : 167.

(29) قال البونسي بعد أن أورد هذين البيتين ما يلي : أخذ هذا من قول الآخَرِ :

يا مَنْ إذا قَرَأَ الانجيـلَ ظـلَّ لَـهُ   قَلْبُ الْحَنيفِ عن الْقـرآن مُنْصَرِفـا
رأيتُ شَخْصَكَ في نَوْمِي يُعانِقُنــي   كَمـا يُعَانِقُ لامُ الكـاتِبِ الأَلِفــا»

كنز الكتاب : 166 وقول ابن لبّال : «عناق اللام للألف» مأخوذ من قول الحريري في المقامة 31 : «فعانقته عناق اللام للألف، ونزلته منزلة البرء عند الدنف». وقد علق الشارح الشريشي على هذا بقوله : «أما بخط المغرب فلا معانقة بينهما إلا في الطرفين، وربما وقعت في بعض هذا الخط كالصليب وفي بعضه لا التقاء بينهما البتة، وإنما يريد صورة لام ألف بالخط الكوفي وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل» 3 : 136.

(30) كنز الكتاب : 166.

وقالَ أَيْضاً :

يَا مَنْ أَتَى يَخْرُصُ ٱلزَّيْتُونَ فَارِغَةً ... وَيَسْتَدِلُّ عَلَى مَا فَاتَ بِٱلْوَرَقِ
أَتَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ دونَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمُ ... لاَ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ مِنْ عَلَقِ
وَإِنَّمـا أَنْتَ فيها تَسْتَـدِلُّ بِــهِ ... كَثَاقِبِ ٱلدُّرِّ فِي داجٍ مِنَ ٱلْغَسَقِ
فَتُبْ إِلَى ٱللَّهِ وَاحْذَرْ مِنْ عَوَاقِبِه: ... مَنْ يَرْكَبِ ٱلْبَحْرَ لاَ يأمَنْ مِنَ ٱلْغَرَقِ(31)

وسَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ أَكْلِ لَحْمِ ابْنِ آدَمَ مَيّتاً : أَيَجُوزُ لِلْمُضْطَرِّ إِلَيْهِ أَمْ لاَ فَقَالَ :

وَإذا ٱضْطُـرِرْتَ لآدَمِـيٍّ مَيّتــاً ... فَلْتَهْرُبَـنْ مِنْـهُ هُـرُوبَ ٱلآبِــقِ
فَٱلْمَالِكِـيّ يَـرَى سَواءً أَكْلُـــهُ ... مَعْ قَتْلِهِ هَـذَا كَـلامُ ٱلصَّادِقِ
وَالشَّافِعِيُّ يَـرَى مُباحـاً أَكْلُـهُ ... لِلْبَـائِسِ ٱلْمُضْطَرِّ خيفَـةَ عائِـقِ
يَعْتامُـهُ مِـنْ جوعِـهِ فَلَرُبَّمـــا ... يَغْتَالُـهُ فَيَمُـوتُ مِيتَـةَ فــاسِقِ(32)

وقال في محبرة عنّاب محلاة بالفضّة :

منعلـــةٌ بـــالهلال مُلْجمـــةٌ ... مجدولَـــةٌ مـــنَ الشّفَـــقِ
كأنّمـــا حبْرُهـــا تميّـــعَ فِـــي ... فُرْضَتِهـا سائـلٌ مـن الـغَسَقِ
فـأَنْتَ مهمـا تُـرِدْ تُشَبِّهُهـــا ... في كلّ حالٍ فانظُرْ إلى الأفقِ(33)

وقال فِي الجَلَمَيْن :

ومُعْتَنِقَيْـنِ مـا اتُّهمـا بـــعِشْقٍ ... وإنْ وُصِفـا بضَمٍّ واعْتِنـــاقِ
لَعَمْرُ أبيكَ ما اجْتَمَعا لمَعْنًـى ... سِوَى مَعْنى الْقَطيعةِ والْفِـراقِ(34)

---

(31) كنز الكتاب : 166–167 ويقول ابن عبدون في الخراص ما يلي : «هؤلاء القوم يجب أن يسموا بالحقيقة ظَلَمة فسّاقا أَكَلَة سحت أشراراً سفلة، لا خوف ولا حياء ولا دين ولا صلاة لهم إلا طلب الدنيا وأكل السحت والربا» وبعد أن زاد في ذمهم قال بخصوص خرص الزيتون : «فإن خرصوا الزيتون فإنه يُسقط مما حصل في خلاصه الربع لآفة تنزل أو لعاهة تكون، فليس يؤخذ زيتونا وإنما يؤخذ زيتا».

(32) كنز الكتاب : 167 (مخطوط).

(33) المطرب : 98.

(34) المطرب : 98، ووردت نسبتهما لأبي البقاء الرندي في نفح الطيب 4 : 147 ووردا منسوبين لأبي الأصبغ عبد العزيز بن ريدان في لمح السحر لابن ليون التجيبي : 96–7 رسالة مرقونة وموضوعة بخزانة كلية الآداب بفاس؛ والمذكوران عاشا بعد ابن لبال فمن الجائز أن يكونا قولهما على سبيل التمثل.

وقال معارضاً أبيات الحريري في المقامة الثانية :

وَدّعتُها ومَدامعي تنهلُّ بالدَّمْعِ الطَّليقْ
فَبكتْ فأَذْرَت أَدْمُعاً في صفحةِ الخَدّ الأنيقْ
ومضَتْ تَعَضّ بنانَها بين التلهُّف والشّهيقْ
فرأيتُ دُرّاً ساقطاً من نرْجسَيْنِ على شَقيقْ
ورأيت مبيضّ اللُّجَيْنِ يعَضّ محمَرّ الْعَقيقْ[35]

حرف اللام

وقال في محبرة آبنوس :

وخَديمةٍ للعلمِ في أحشائِها كلَفٌ بجمع حرامِهِ وحَلالِهِ
لبست رداء الليل ثمّ توشّحَتْ بنُجومِهِ وتتوجت بهلالِهِ[36]

حرف الميم

قال ملغزاً :

سبيئتان اثنتان هذي حلٌّ مباحٌ وذي حَرامُ
قُلْ لذوي العلمِ خَبّروني ما الحلّ مِنْها وما الْحَرامُ[37]

السَّبيئَة الأولى : هي الشاة المسلوخة، يقال : سبأت الجلد إذا سلخته، والسَّبيئةُ الثانية : الْخَمْر.

---

(35) شرح الشريشي 1 : 51، والأبيات المشار إليها هي قول الحريري :

نَفْسي الْفِداءُ لثغرٍ راقَ مَبْسِمُه وزانه شَنَبٌ ناهِيكَ مِنْ شَنَب
يَفْتَرّ عَنْ لُؤْلُؤ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ وَعَنْ أقاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَب

وقوله :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضّت على العُنّاب بالبَرَدِ

(36) المطرب : 98، وللأندلسيين أشعار في محبرة الأبنوس، انظر التشبيهات لابن الكتاني : 237 وتحفة القادم.

(37) المصدر نفسه : 98.

وَقَـالَ :

إذا آضْطَرَبَتْ سُمْرُ آلْيَراعِ بِكَفِّهِ ... تَرى دُرَراً تَنْحطُّ مِنْ فَمِ أَرْقَمِ
وَخطّاً كَما أَلْقَتْ عَلَى صَحْنِ خَدِّها ... عَروسُ الرُّبَى وَشْيَ الرِّياضِ آلْمُنَمْنَمِ[38]

وَقَالَ فِي آلْخُطّاف[39] :

أهـلاً بخُطّـافٍ أَتانـا زائِـراً ... غَـرِداً يُذَكِّرُ بالزَّمـانِ آلْبَـاسِمِ
لَبِسَتْ سَرَابِيلَ الصَّباحِ بُطُونُـهُ ... وَظُهورُهُ ثَوْبَ آلظَّلامِ آلْقَاتِـم[40]

حرف النون

وقالَ أيضا :

إذا أَبْصرَ المَحْزُون أَرْضَ شَذُونةٍ[41] ... وحُسْن مُحيّاها أَفاقَ مِنَ آلْحُزْن
كـأَنّ عَلَـى غيطانِهـا ومُتونِهـا ... دَبابيجَ خُضْراً أَحْكَمَتْها يَدُ المُزْن
مَذَانِبُ تَتْرى فِي مُرُوجٍ كأنَّها ... عِذارٌ بِخَدَّيْ ذي جَمَالٍ وَذِي حُسْنِ[42]

وقال يَصِفُ الشَّيْب :

بَـكَتْ أُمَيْـمُ أَنْ رَأَتْ مَشِيبِـي ... يَضْحَكُ فَـي مَفْـرِقِ آلْجَبِيـنِ

---

(38) أورد البونسي هذين البيتين بعد أشعار قيلت في صفة القلم كقول أبي تمام :
لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُه. وقول ابن المعتز :
إذا أخـذ القرطـاس خـلت يمينـه ... تفتـح نـورا أو تنظّـم جوهـرا
ثم قال : «وهذا المعنى أخذ القاضي أبوالحسن علي بن أحمد بن لبّال الشريشي حين قال»
(كنز الكتاب : 25).

(39) هو الذي يعرف عند بعض الناس بالسنونو، ويطلق عليه آخرون طير الجنة، وقول ابن لبال :
يذكر بالزّمان القادم، إشارة إلى أنه كان يفد عند قرب فصل الربيع، ومثله أيضا اللقلق
المعروف عندنا في المغرب بالبلارج، وفي ذلك يقول شاعر أندلسي آخر :
وَغَريبَـــةِ الأَوْطـــان إلاّ أنّهـــا ... جـاءَتْ تُـبَشِّرُ بالزَّمـانِ آلْمُقْبِـلِ

(40) كنز الكُتّاب : 166.

(41) راجع ما كتبناه عن شذونة في الفصل الأول.

(42) كنز الكتّاب : 165.

نَـوَّرَ غُصْنُ ٱلشَّبَـابِ مِنِّـــي   هَلْ يُنْكَرُ ٱلنَّوْرُ فِي ٱلْـغُصُونِ[43]
فَقُــلْتُ لاَ تَحْزَنِـــي أُمَيمـــا   وَنَشِّفــي أَدْمُـــعَ ٱلْجُفُـــونِ[44]

وقالَ في ٱلْغَزَل :

وَمُهَفْهَفٍ عَبَثَ الشَّمولُ بِقَـدِّهِ   عَبَثَ ٱلْفُتـورِ بِلَحْظِهِ الوسْنـانِ
عَضّت خَلاخِلُه وَجَالَ وِشَاحُـهُ   وَلَـوَى مـآزِرَهُ عَلَـى كُثْبـانِ
ما كنتُ أحسِبُ قبلَ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ   أَنّ البدورَ تـدورُ في الأَغْصانِ
غازلتُهُ حَتّـى بـدا لي ثغـرُه   فحسِبْتُـه دُرّاً عَلَـى مَرْجـانِ
كم ليلـةٍ عانقتُـه فكأنَّمـا   عانقتُ من عِطفيهِ غُصْنَ البانِ
يَطْغى ويلعبُ عند عقْدِ سواعدي   كالمُهْرِ يلعبُ عِنْدَ ثَنْي عِنـان[45]

حرف اليـاء

وقـال :

بنَفْسيَ هاتيكَ الزوارقُ أُجْرِيَتْ   كحلبة خيـلٍ أولاً ثـمّ ثانيـا
وقد كانَ جيدُ النهرِ من قبل عاطِلاً   فأمسى بها في ظلمة الليلِ حالِيا
عليها لزهْرِ الشمعِ زهر كواكبٍ   تخالُ بها ضمن الغديرِ عوالِيـا
ورُبّ مُثـارٍ بالجنـاحِ وآخـرٍ   برجلٍ يحاكي أرنباً خاف بازيا[46]

وقال أيضا وكتب بها إلى حمص[47] وقد حنّ إلى أحبابه، ومعاهدَ تَفَيَّأَ ظِلال

---

(43) قال البونسي : كأنه أشار في البيت الثاني إلى قول ابن الرومي، وأومأ إليه بالإيماء الخفي :
قـدْ يشيبُ الفتـى ولـيْسَ عجيبـاً   أنْ يُرى النّوْرُ في القُشَيْبِ الرّطيب
قلْت : وممن سبقه إلى هذا المعنى معاصره الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن الفخّار المالقي الذي يقول : (المطرب : 197) :
أَمُسْتَنْكَرٌ شَيْبُ ٱلْمَفَارِقِ في الصِّبـا   وَهَلْ يُنْكَرُ النَّوْرُ المُفَتّحُ في غُصْنِ
(44) كنز الكتاب : 166 (مخطوط).
(45) الشريشي 3 : 137.
(46) رايات المبرزين : 53 تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضي.
(47) هي إشبيلية.

أمْنِها مع إخوانه وأصحابه، في زمان جادَلَهُ بالآمال، ولأيامِه غررٌ وحجول تروق العيون في البُكَر والآصال :

سلامٌ على حِمْصٍ[47] وَإنْ غيّر البِلَى مَعاهِدَ مِنْها نلتُ فيها الأمانِيا
وحُقّ لَها مِنِّي السَّلامُ لأنّني وَرَدْتُ بِهَا ماءَ الشَّبيبةِ صافِيا
وَفِي وَجَناتِ ٱلدَّهْرِ إِذْذَاكَ رَوْنَقٌ كَمَا رَوْنَقَ ٱلصَّقْلُ ٱلْحُسامَ ٱلْيَمَانِيا[48]

وقالَ أيْضاً في المَعْنَى :

قَوّسَ ٱلشّيْبُ قَنَاتِي بَعْدَ أَنْ كَانَتْ سَوِيَّهْ
وَغَدا يَشْدُو بِرَأْسِي: أَنَا عُنْوَانُ ٱلْمَنِيّة[49]

وقال أيْضاً في ٱلْمَعْنَى :

تَعَجَّبَتْ أَنْ رَأَتْ مَشِيبِي يَضْحَكُ فِي مَفْرِقِي سُمَيَّهْ
لاَ تَعْجَبِي فَٱلْبَيَاضُ زِيّ مِنْ زيّ قَوْمِي بَنِي أُمَيَّهْ[50]

---

(48) كنز الكُتّاب : 164.

(49) كنز الكتاب : 166.

(50) يشير إلى أن البياض كان شعار بني أمية كما أن السواد كان شعار خصومهم بني العباس.

الملحق الثاني

نشره

روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي والحبيب

... فصنّفتُ في التفضيل بينَهُما هذا الدّفْتَر الذي رسمتُ فيه ما قَيّدت عن شيوخي وقلدْت[1]، وأثبتتُه منْ حفظي في صُحُفي وخلّدت، مع ما تكلّم فيهِ العُلماء، وأثبتَهُ في تواريخِهِمْ المتأخّرونَ والْقُدماء.

فأوّل ما أذكُره ما قَال الأستاذ النّحوي أبو الحسن علي بن مُسلم[2] عندما سألناهُ وقْتَ قراءتِنا عليه شِعْر حَبيبٍ وأبِي الطيّب، قُلْنا لَه : يا أُستاذ، بالّذي يُبقيك للعِلْم ترفعُ شرائعَه، وتَمْلِكُ عَصِيَّه وطائعَه، أيُّهما أطيبُ شِعْراً، وأنفس دُرّاً، فقال : حبيبٌ أصْنَع، وأبو الطّيّب أطْبَع. وهذا لعَمْري فَرْقٌ بَيّنٌ دالٌّ على أن المُتنبِّي أشعرُ، لأنّ ما كانَ منَ الشعر طبْعاً لا تكلّفاً جاءَ أحْسَن، وما كانَ منْهُ تكلّفاً جاء أصْعَبَ وأخْشَن، ولأنّ غيْرَ المطْبوعِ إذا تكلّفَ ضِدّ طِباعِهِ في شيْءٍ عليهِ تعذّرَ، وأَبى وتنكّر، [فاضطرّ] إلَى التصنّع، ونَفِر عن الطّبْع إلى التطبّع، وللّهِ دَرُّ أبي الطّيّب حيثُ يَقول :

وأسرعُ مفعولٍ فعلْتَ تغَيّرا تكلّفُ شيءٍ في طباعك ضدُّه[3]

وكذلك قوله :

لأنَّ حِلْمَك شيءٌ لا تكلّفه ليسَ التكحُّلُ في العَيْنَيْنِ كالْكَحَلِ[4]

---

(1) وقلدت : جمعت، يقال : قلدت أقلدُ قلْداً أي جمعت ماء إلى ماء أو وقلّدت بالتشديد.

(2) هو أبو الحسن علي بن محمد بن مسلم مولى المعتمد بن عباد، كان من جلة النحويين، وشهر بجودة التأديب وإنجاب التلاميذ، وكان حيّاً سنة 539هـ له ترجمة في التكملة رقم 1848 والذيل والتكملة 5 : 392 (وص 180) وينبغي أن تكون قراءة ابن لبّال على هذا الشيخ في إشبيلية خلال العقد الرابع من القرن السادس.

(3) الديوان 2 : 142 ط. البرقوقي.

(4) المصدر نفسه.
وللمتنبي أيضاً في هذا المعنى :
يرادُ منَ القلب نِسيانُكم تأبى الطّباعُ على الناقِلِ =

وما أحسنَ قولَ سالِم بْنِ وابصة : (11)

يا أيّها المُتحَلّي غَيْرَ شيمتِهِ   إنّ التخلُّقَ يأتي دونَهُ الخُلُق[5]

وأنشدوا لأم الهيثم :

ومَنْ يتخِذْ خيماً سِوى خيمِ نفسِهِ   يدَعْه ويغْلِبْهُ على النَّفْسِ خيمُها[6]

وقالَ ذو الإصبع :

كُلُّ امرىءٍ راجعٌ يوماً لشيمتِهِ   وإن تخلّقَ أخلاقاً إلى حين[7]

وقالَ قُدامة :

رأسُ الخَطابة الطّبْع، وعَمودها الدُّرْبة، وجناحاها اللفظ. ورؤوس الأشياء أَنْفَسُها وأعلاها، وأحقّها بالفَضْل وأَوْلاها. وقالَ ابنُ رشيق في كتاب العمدة[8]:

ومن الشّعْر مَطْبوعٌ ومَصْنوع، فالمطْبوعُ الذي وُضع أولاً وعَلَيْه المَدار،

= وللتّهامي فيه :

ومكلّف الأيام ضدّ طِباعها   متطلّبٌ في الماء جذوة نار

(5) نسبه أبو تمام في الحماسة لسالم بن وابصة الأسدي ولكن صدر البيت في الحماسة كما يلي :

عليكَ بالقصْدِ فيما أنتَ فاعلُه

ونسبه الحصري في زهر الآداب إلى العرجي ورواه هكذا :

ارجِعْ إلى خلْقك المعْروف وارضَ به   إن التخلّق يأتي دونه الخُلُق

وسالم بن وابصة تابعي دمشقي شاعر توفي في آخر خلافة هشام بن عبد الملك، انظر الأعلام للزركلي 3 : 116، ط. أولى.

(6) في لسان العرب : أبو عبيد : الخيم : الشيمة والطبيعة والخلق والسجية وأنشد :

ومنْ يبتدعْ ما ليسَ منْ خيمِ نفْسِهِ   يَدعْه ويغلِبْه على النفسِ خيمُها

وورد البيت غير منسوب أيضا في عيون الأخبار 3 : 5 والعقد 3 : 3.

وسمعه المبرد من أم الهيثم الكلابية، وعن الكامل ينقل المؤلف وقال المرصفي في رغبة الآمل 1 : 90 : نسبه بعض الناس لسليمان بن المهاجر.

(7) ذو الإصبع العدواني حرثان بن الحارث شاعر جاهلي مشهور، والبيت من قصيدة له مشهورة يعاتب فيها ابن عمه، انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام 2 : 184 وقد جمع شعره في ديوان نشر بالعراق.

(8) انظر النص في العمدة 1 : 129 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحمد وقد أورده ابن لبال بتصرف واختصار، وهذا إما لأنه ينقل عن بعض مختصرات العمدة أو لأنه يعتمد على محفوظه وذاكرته وهذا ملاحظ في عدد من نقوله.

والْعَرَبُ لا تَنْظُر في أَعْطَاف شِعْرها بأن تجنّسَ أو تُطابق أو تُماثل بل تنظُرُ في فَصاحة الكلام وجَزالته مَعَ بسْط المعنى وإبْرازه. وإنما استطرفوا ما جاءَ من الصّنعة في البيت والبيتين في القصيد النادر بين القصائد، وأما إذا كثر فهُوَ عَيْب يَشْهَد بخلاف الطّبْع وإيثار الكُلْفة.

قال الفقيه المشاوَر الأستاذ أبو الحَسَن بن لُبّال أدامَ آللّهُ رِفْعَتَه : وسألْنا الوزيرَ أبا بكرٍ محمّد بْنِ عبد الغَني بْنِ فندلة[9] كاتب الرّشيد[10] وقْتَ قراءتنا عليه عامَ اثنين وثلاثين [وخمسمائة] فقال وكان شيخاً كبيراً كَتب للرشيد، ورَكَضَ مع أعيان الكتاب في ساحة القصر المشيد : يابَنِيّ، مِنَ الفرْقِ بينَهُما أنّ شيْخَنا أبا الحجّاج يوسف الأعلم الشنتمَري[11] كانَ إذا دخَلَ شهْر (12) رَمَضانَ يُقْرئُنا شعْرَ حَبيب، ويَنْهانا عَنْ شِعْر أبي الطّيّب، وهذا إفراطٌ في تفضيلِ أبي الطّيّب عَلَى حَبيب، ونهايةٌ وبَلاغٌ في تقْديمِه عليْه، [و] منعُه إيّاهم منْ قراءتِهِ في رمضانَ لِما فيه من الاسْتِغْراق في الْمَدْح والمُبالَغة والغَوْص على الْمعاني الرائِقَة والأغْراض البَديعة الفائِقة، والغَزَل المُطْرب، والتّشْبيب الْمونِق المُعْجِب، حَتّى لَيَذْهَبُ بالوَرَع، ورُبّما أُوْقَعَ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ حَصانَةٌ فيما يعْلَق بِهِ من الدّرَنِ والطَّبَع، وكلّما جاوَزَ الشاعِرُ في المَدْح وغَلاَ، وتربّع منصّةَ المبالَغَة وعَلا، وَأَرَقّ الغزَلَ، وأضاعَ نفْسَهُ بَيْنَ العُذْر والعَذَل، وتجاوزَ الصّدْقَ إلى الكَذِب، والْجِدّ إلى اللّعِب كَانَ أَشْعَر، وَأَسْمَعَ بِدواعي مَا يَنْتَحِلُه وأَبْصَر. أَلا تَرى أنّ الشِّعْرَ لَوْ كَانَ كذِبُه صِدْقاً، وباطلُه حقّاً، وكانَ الوَصْف فيه على الظّاهِرِ لا عَلَى التّأْويل لسَخُف؛ كما قيلَ إنّ

---

(9) أبو بكر ابن فندلة هذا من بيت إشبيلي مشهور، كان من كبار أصحاب الأعلم الشنتمري، وكان أديباً لغوياً نحوياً محدّثاً شاعراً فصيحاً. ولد سنة 444هـ وتوفي سنة 533هـ. انظر ترجمته في صلة ابن بشكوال : 552-553 وبغية الوعاة رقم 271.

(10) الرشيد هو عبيد الله بن محمد المعتمد، كان ولي عهد أبيه، توفي في حدود 530هـ بقلعة مهدي بن توالا حيث كان منفياً وقد نيف على 70 سنة، انظر ترجمته في الحلة السيراء 2 : 68-70.

(11) هو شيخ الأندلس في وقته في الدراسات الأدبية والنحوية واللغوية وأكثر الأندلسيين شرحا للأشعار الجاهلية والإسلامية، انظر ترجمته ومراجعها في وفيات الأعيان 7 : 81 تحقيق د. إحسان عباس.

بعْضَ الأُمراء قالَ لشاعِرٍ ــ أُظنُّه ابْنَ هانِيء ــ اصنَعْ لي شعْراً ولا تكْذِبْ فيه، فقال :

اللّيـلُ لَيْـلٌ والنّهـارُ نَهـارُ والبَغْلُ بَغْلٌ والحِمـارُ حِمَـارُ
والـدّيكُ ديكٌ والدَّجاجةُ مِثْلُـهُ وكِلاهُمـا طيـرٌ لَـه مِنْقـارُ[12]

فلم يطب ــ لما خرجَ عن الشعر ــ في الأَسْماع، ومَجَّتْهُ النّفوسُ والطّباع، فلمّا قال :

أَلِـفَ السّقْمُ جسْمَه والأَنيـنُ وبَـراه الْهَـوى فَمـا يستبيـنُ
لا تَـراهُ الظّنّـون إلا ظنونـاً فَهْوَ أخفى مِنْ أَنْ تَراهُ الظُّنونُ(13)
قـد سمعْنـا أُنينَـه مـنْ قَـريبٍ فاطْلُبوا الشَّيخَ حيث كان أُنينُ
لم يـعشْ أنّـه جليـدٌ ولكـنْ ذابَ سُقماً فلم تجِدْه المَنـون[13]

حَسُن ذلك في المَسامع، وذهَبَ طَرَبُه بِكُلِّ سامِع.

وَلِما في الشّعْر من الكذِب لم يُعْطَهُ النّبي ﷺ، وحاشِ لِلّهِ أن يكونَ كاذِباً، هذا في أحد الأقوال، وقد قيل إنما مُنِعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لأنّهُ لو كانَ شاعراً ما صُدِّق فيما أَتَى به؛ إلا تَرَى أَنَّهُ قَدْ قيل : «شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِه رَيْب المَنون»؛ وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم لا يُقيمُ وَزْناً وَلاَ يَسْتَطِيع من الشّعْر قافِية.

قالَ الفَقيهُ الأَسْتاذُ الْمُشاوَرُ أبو الحسَن عَلي بْن لُبّال أدامَ اَللّه عِزّه : وسأَلتُ الوزيرَ الْفَقيهَ الكاتبَ القاضِيَ أبا الفَضْل ابنَ الأعلم[14] بشَريشِ شَذونة حَرَسَها

---

(12) انظر على سبيل المثال في هذا : التقريب لابن حزم : 206-207.

(13) ديوان ابن هانيء.

(14) هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن يوسف الشنتمري، حفيد الأعلم المشهور ولد بإشبيلية سنة 478هـ وروى عن أبيه عن جده أبي الحجاج الأعلم جميع رواياته وتآليفه، وهو من أعلام 546هـ أو التي بعدها، ولم يذكر المؤلف تاريخ اجتماعه به في شريش واكتفى بالإشارة إلى أنه كان عند عودته من حضرة أمير المؤمنين، أما أمير المؤمنين هذا فهو عبد المؤمن بن علي، وقد قدم عليه أبو الفضل مع وفد أهل الأندلس لمبايعته، وكان هذا الوفد يتألف من نحو الخمسمائة «من الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ والقواد» وكان في هذا الوفد المؤرخ ابن صاحب الصلاة الذي وصف خروجه من إشبيلية في 15 ذي الحجة سنة 545هـ وأشار إلى مرور الوفد بشريش وجزيرة طريف والقصر الكبير ثم سلا حيث استقبلهم عبد المؤمن=

الله في دار الْفَقيهِ المُشاوَر القاضي أبي غالِبٍ أيمن بن الأيمن عند وُرودِهِ مِنْ حَضْرة سَيّدنا أميرِ المؤمنينِ عَن الفَرْقِ بَيْنَ أبي الطَّيّب وحَبيب ـــ وقَدْ كنتُ قرأتُ عليهِ بإشْبِيلية مُدّةً يَسيرةً حين طَلَبي فيها، واقتباسي للْعِلْم في أقطارِها ونواحيها، فكانَ لي عَلَيْه بذلكَ إدْلال، ولَهُ إليّ هَشٌّ مِنْ ذلِك السَّبَبِ وإقْبال، فَقالَ لي : الكُتّابُ يُفَضّلون حَبيب والشُّعَراءُ يفَضّلونَ أبا الطيّب، وهذا لَعَمْري مِنْ تفضيل أبي الطّيّب على أبي تمّام، لأنّ كُلَّ أحدٍ أعْلَمُ ببضاعَتِهِ[15] وَلَيْسَ للْكُتّابِ نِهايةٌ في علم الشعر لأنّهُ ليسَ مِنْ صناعاتِهِمْ وإنْ كانَ لَهُمْ بِهِ بعضُ المَعْرفة لأنّهُمْ بالكتابةِ أبْصَرُ، وباعُهُم في علْم (14) الشّعرِ أضْيَقُ وأقصر.

وممّا يزيدُ هذا وُضوحاً قولُ عُمَر بن الخَطّاب رضي الله عَنهُ في كِتاب إلَى سَعْد بن أبي وقّاص : شاوِرْ في أمْرِك عَمْرو بن معدي كرب وطلْحَة بن خُوَيْلِد، فإنّ كُلّ قومٍ أعْلَمُ بِبضاعَتِهم وصِناعَتِهم[16]؛ ومنْ أمثالِ العرب : الخيلُ أعلَمُ بفُرْسانها[17]؛ فَمِنْ أعْلَم النّاسِ بالشّعْر الشُّعَراء لأنّه مِنْ صِناعَتِهِمْ؛ ألا تَرى أنّ مَنْ عاملَ خَيّاطاً فأفْسَدَ عَلَيْه [ثَوْبَه] أوْ أَبى هُوَ مِنْ إنصافِهِ إن كانَ لَمْ يُساوِمْه

= في رحبة دار ابن عشرة في أول يوم من عام 546هـ وحكى ابن الملجوم أنه لقي أبا الفضل الأعلم بمراكش في سنة 645هـ. انظر هذه الوفادة في الأنيس المطرب : 192 والبيان المغرب (قطعة منشورة بمجلة المعهد المصري بمدريد جـ 20 ص 94) والعبر لابن خلدون 6 : 489 والاستقصا 2 : 119.

وترجمة أبي الفضل حفيد الأعلم توجد في التكملة : 241–242 وبغية الملتمس : 239 والمغرب 1 : 396–397 ونفح الطيب 4 : 31، 73، 74، 86. تحقيق د. إ. عباس. والمطمح : 64 وارايات المبرزين : 34 والمطرب لابن دحية : 218. وخريدة القصر (قسم المغرب والأندلس) 3 : 469–472 ط. تونس. ومعجم السفر : 117–119 تحقيق د. إحسان عباس. أما الفقيه المشاور القاضي أبو غالب أيمن بن أيمن فلم نقف على ترجمته، وقد يكون من أسرة بني أيمن الذين منهم وزير بني الأفطس أبو عبد الله محمد بن أيمن وولده أبو الحسن محمد بن أيمن. انظر الذخيرة والمغرب 1 : 366 (ط. ثالثة) وقد ذكر ابن عبد الملك في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد السّكْسَكي الشريشي أنه روى عن أبي غالب أيمن القاضي (الذيل والتكملة 5 : 625).

(15) هكذا في الأصل، وسيكررها فيما بعد.

(16) انظر في أنه يرجع في كل صناعة إلى أهلها : الموازنة 1 : 395–396.

(17) انظر المثل وتخريجه في كتاب الأمثال لأبي عبيد : 204 تحقيق د. عبد المجيد قطامش.

فاخْتَلَفا في ذلِك أوْ تَشاجَرا وارْتَفعا إلَى حاكِمٍ من الحُكّام إنّما يُوَجّهُ حُكْمَهما في القيمة إلَى أهْلِ تِلْكَ الصَّنْعَة وكذلكَ الْعَطّار والنّجّارُ والْخراز وغَيْرُ ذلِك؛ ورَوى أبو علي الْبَغدادي[18] أنّ بعْضَ خُلَفاء بني أمية قالَ لجَرير لمّا كان شاعِراً : أَخبِرْني مَن أَشْعَرُ النّاس فقال : ابْنُ العِشْرين يِعْني طَرَفة، قالَ : فما تَقول في ابن أبي سَلْمى والنّابغَة، فقالَ : كانا ينيرانِ الشّعْرَ ويُسدّيانِه؛ قال : فما تقولُ في امرىء القَيْس، قلت اتخذَ الخبيثُ الشّعرَ نَعْلَيْن يَطَؤُهُما كيفَ شاء، قال : فما تقولُ في ذي الرّمّة، قال : قدَر مِنَ الشّعْر عَلَى ما لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ أَحَد، قال : فما تقول في الأَخْطَل، قال : ما باحَ بما في صدرِه من الشّعْر حتّى مات، قالَ : فَما تقولُ في الفَرَزْدَق، قال بيَدِه نَبْعَةُ الشّعْر قابِضاً عَلَيْها، قال : ما أَبْقَيْتَ لِنَفسِكَ منْهُ شَيْئاً قالَ : كلاّ واللّهِ يا أَميرَ المؤمنين، أنا مَدينةُ الشّعْر الّتي يَخْرُجُ منْها ويعودُ إلَيْها وأنا نَسَجْتُ في الشّعْر نَسْجاً ما نسَجَه أحَد، قالَ، فما النسيج قال : نَسَبْتُ فاطْرَبْت، (15) وهَجَوْتُ فآذَيْتُ، ومَدَحْتُ فأَسْنَيْتُ، ورملتُ فأغورت، ورجزت فأبحرت، فأنا قلْتُ منَ الشّعْر ضُروبا لم يَقُلْها أَحَد.

قالَ الْفقيهُ المُشاوَر الأستاذُ أبو الحَسَن عَلِي بْنُ أَحْمَد بْنُ لبّال أدام اللّهُ عِزّه : وحدّثني غَيْرُ واحِد أنّ قَوْماً أُدَبَاء خَرَجُوا مِنْ مَجْلِسِ المُتَوكّل بِبَطَلْيَوْس وقَد أَجْروا ذكْر حبيبٍ والْمُتَنَبّي حتّى كثُر في التفضيل بينهُم الصَّخَب. ومال بِهِم حُبُّ التفضيل عنِ الطّرب فقال بعْضُهم : ميلوا بنا إلى رَجُل جاهلٍ نجعَلْ كلامَهُ في ذلك فالاً فأيُّهما أجْرى الفالُ عَلى لسانِهِ، أجْمعنا على إحسانِهِ واستِحْسانِهِ فخَرجوا متناجِين خارجَ المدينة وإذا بحرّاثٍ يحْرُث وكانَ ذلك أوّلَ الرَّبيع، والأَرْضُ تَرْفُلُ من الزّهر في مِثْل الوَشْي الصنيع، فقالوا لَهُ وهُم يظُنُّونه جاهِلا، وعمّا انتبهوا لَه نائِما غافِلاً، أيُّها الحرّاث : أيّي الرَّجُلَين أشْعَرُ، المُتَنَبّي أَمْ حَبيب ؟ فركَز عَصاه وقالَ : اسْمَعوا مِنّي، وخُذوا عَنّي، أَشْعَرُهُما الّذي يقولُ :

لَكِ يا منازِلُ في القُلوب مَنازِلُ أَقْفَرْتِ أنتِ وهُنّ مِنْكِ أواهِلُ

فاسْتَنْبلوا مِنه ما اسْتَجهَلوا، ورَفَعوا منْه ما وَضَعوا، وفَكّروا عنْدَما انفتَلوا عَنْه

---

(18) انظر النص في الأمالي 2 : 79، 180.

ورَجَعُوا، وَقالوا : واللّهِ ما بدأ بهذا القَصيد، إلاّ لمَعْنًى مُفيد، وما رَمى عَنْ قَوْسِهِ إلا بالسَّهْم السّديد، فكَشَفَ لَهُم الفِكْر، وأبْدَى لهُم الذِّكْر، أنّه أراد قوْلَ أبي الطيّب في أثناء القصيدة (16) :

وإذا أتتكَ مذمّتي مِنْ نـاقصٍ   فَهْي الشّهادةُ لي بأنّي كامِـل[19]

فرفَعوا للمُتَوكّل[20] قصّتَه، ووصَفوا لَهُ صِفَتَه، فقال : آه هو ابن [مقانا][21] أغْفلْناه واللّهِ وأضَعْناه، فأمر الناس أن يَجْلسوا إليْه، ويقْرأوا عَليه، وأثْبَتَهُ في ديوانِه، وألْحَقَهُ بإخْوانِه.

قالَ الفَقيهُ المُشاوَر الأستاذُ أبو الحَسَن علي بْنُ لُبّال : وَعَلَى ذِكْرِ هذا [نُورِدُ] ما ذَكر ابنُ بسّام في كتاب الذّخيرة في أخبارِ أهلِ الجَزيرة، قالَ في فَصْلٍ مِنْ كتابِهِ : إن أبا عبدِ الله بْنِ شرف قالَ يَوماً للمأمونِ يَحْيى بْنِ ذي النّون أيّام خدْمَتِه إيّاه، واسْتِشْفافِه صُبابَةَ عُمْرِه في ذراه، وقَدْ أجْروا ذكْرَ أبي الطيب، فذهَبَ في تأبينِه كُلَّ مذْهَب، وقالَ : إنْ رَأى أميرُ المؤمنين لا فارَقَ الْعِزّةَ والعُلا أنْ يُشيرَ

---

(19) لم أقف على هذه الحكاية في مكان آخر، ولم يشر المؤلف إلى حكاية مماثلة تحكي عن المعري وهي أن الشريف المرتضى كان يبغض المتنبي ويتعصّب عليه، فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبّي فتنقصه المرتضى وجعل يتتبّع عيوبه فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله : لك يا منازل في القلوب منازل. لكفاه فضلاً، فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة، فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها، فقيل : النقيب السيد أعرف، فقال : أراد قوله في هذه القصيدة :

وإذا أتـتكَ مذمّتـي مِـنْ نـاقصٍ   فهْـي الشّهـادةُ لي بأنّـيَ كامِــل

تعريف القدماء بأبي العلاء 1 : 76، 287، 354.

(20) هو عمرو ولد المظفر أحد ملوك بني الأفطس، انظر ترجمته وأخباره في المطرب 21–33 والبيان المغرب والذخيرة ونفح الطيب والحلة السيراء 2 : 96–107.

(21) في الأصل : مفسد أو مسد، بدون نقط، وأغلب الظن أنه الشاعر ابن مقانا كما أثبتناه، فهو الذي اشتغل بالحرث والفلاحة ببلده القبذاق بعد أن أعياه التجوال في أقطار الأندلس، وفي ذلك يقول من قصيدة يصف فيها حاله :

تـركتُ الملـوكَ الخالعيـنَ برودَهُــمْ   عَلَيّ وسَيْري في الْمَواكِب والنّقْـع

وأصبحتُ في قبذاق أحْصدُ شَوكها   بمِزْبــرة رعشاءَ نابيــةِ القَطْــع

انظر ترجمة ابن مقانا ومصادرها في الذخيرة ق 2 : 786–796. تحقيق د. إحسان عباس.

مِنْ شعْرِ أَبِي الطيّب إلى أيّ قصيدةٍ شاء أُعارضُهُ بقَصيدةٍ تُنْسي اسْمَه، وتعفي رَسْمَه، فتغافلَ عنْهُ ابْنُ ذي النّون علْماً بضيق جنابِه، وإشفاقاً مِنْ فضيحَتِه وانْتِشابِه، فألَحّ على ابْنِ ذي النّون حَتَّى أَحْرجَه وأغراه فقالَ لَه، دونَكَ قَوْلَهُ :

لِعَيْنِكَ ما يلْقى الفُؤادُ وما لَقي

فَخَلا بها ابنُ شَرف يوماً فوجَدَ مَرْكَبَها وعْراً، ومَريرَتَها شَزْراً، ولكنّهُ أبلى عُذْراً وأَرْهَقَ نَفْسه من أَمْرِها عُسْراً (17)، فما قَامَ وَلاَ قَعَد، وَلا حَلّ ولا عَقَد، وسُئِل ابْنُ ذي النّون : أيّ شيءٍ أقْصَده إلى هذه الْقَصيدة، فقالَ لأنّ أبا الطّيّب يقولُ فيها :

بلغْتُ بِسيفِ الدّولة النّور رُتْبةً أَنَرْتُ بِها ما بَيْنَ غرب ومَشْرِقِ
إذا شاءَ أنْ يَلْهُو بلحْيَةِ أَحْمَقٍ أَراه غُباري ثُمَّ قالَ لَه الْحَقِ[22]

وهذِه غَريبةٌ ولَوْ صدرَتْ عن أبي العبّاس المأمون، فَضْلاً عَنْ مُنْتَزِع لَقَبه يَحْيى ابْن ذي النّون.

وقَدْ قيل بُدىء الشّعْرُ بكِنْدَة وخُتِمَ بكنْدَة، أَيْ بُدِىء بامْرِىءِ الْقَيْس وخُتِم بأبِي الطيّب لأنّهُما كِنْدِيان[23]. وقد اتّفَقَ النّاسُ عَلَى تَفْضيلِ امْرِىء الْقَيْس لطَبْعِه وسَلاسَة كلامِهِ عَلَى قِدَمِه، وَقِلّةِ تَكلُّفِهِ عَلَى أَعْرابية خُلُقِه وشِيَمِه.

وَأَمّا قولُ الصّابي : بُدِىء الشّعْرُ بِمَلِك، وخُتِم بمَلِك، يعني بُدِىء بامرىءِ القَيْس، وخُتِم بأبِي فراس الحَمْداني، فإنّما قالَ ذلك لأن أبا فِراس كانَ منْ أرباب الدّولة وأراد التصنُّع لَه بذلك؛ وقدْ قيل إنّ قائلَ هذا إنّما هُو الصّاحِب. وقد أنسى ذكره المُتنبّي، ولولا قُرْبُه من الرّياسَة ما ذُكِرَ مَعَه كَما قَد أَنْسَى أبو الطيّب ذكْرَ الخُبْز أرزي والصّنَوْبَري، وَكَانَا أشيخ منْه وأقْدَم. هكذا ذكَرَ ابنُ رشيق

---

(22) انظر هذا الخبر في الذخيرة ق 4 : 23–24 تحقيق د. إحسان عباس وثمة حكاية مماثلة لهذه تنسب الواقعة للخالديين مع سيف الدولة، انظر الصبح المنبي.

(23) أضاف الأندلسيون إليهما كندياً ثالثاً هو الرّمادي، قال الحميدي في ترجمة يوسف بن هارون الكندي الرمادي : «ونفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة، وختم بكندة. يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هارون، وكانا متعاصرين». جذوة المقتبس : 347.

في كتابِ العُمْدة[24].

وقال أبو الطّاهر يوسُف بن عبد الله التّميمي في مَقامَتِهِ في تصْنيف الشعراء، قال : فما تقولُ في الطّائيّ الأكْبر، قالَ نِعْم ما صَنع وحَبّر، وبيسَ ما أفْصَح عن الْمَعاني وعبّر، حَتّى أذّن في شِعْره وكَبّر، ومن التحْسين والتنْجيد (18) ما يُزْري بالمُبَرّز المُجيد، وقد أَبى النّاسُ إلاّ تقديمَه، وإنْ مَزّقوا بِالذّمِّ أديمه؛ قالَ : فَما تقولُ في أبي الطّيّب قالَ : ذو الكلام الطيّب، والطّبْع الصيّب، لَهِجَتْ بأَمْثالِهِ الأفْواه، وغُذِيَتْ بِشِعْرِهِ الأمْواه، وسارَ بشِعْرِه الرِّفاق، ووقَعَ عَلَى تَفْضيلِهِ الإصْفاق[25].

فَمَدَحَ صَنْعَةَ أبي تمّام بالشّعْر وتنْميقَه إيّاه، وذمّ معانيَهُ في ذلك وجَفاه، فليتَهُ لو ذَمّ صناعَتَه، مدَحَ معانيَهُ وبراعتَه، وإلاّ فهَلْ تروى غُلّة العاطشِ خُضْرةُ أشْجار، وبَهْجةُ كَمائم وأزْهار، بضفّةِ نَهْرٍ مُرّ المَذاق، مُقِعّ المُلوحَةِ والحُراق، فإذا صادفَ ماءً زُلالا، قد الْتحفَ مِنْ شَجَرٍ بِهِ ظِلالاً، شَفَى عِلّته، وَأَرْوى بُوروده إيّاهُ غُلّته، وكذلكَ هُو شعْرُ أبي الطيّب والله لَقُلْتُ هُو العذْبُ الزّلال، والْخَمْرُ السّلسال، يلْتحفُ من روْنَق طَبْعِه بظِلال.

قال الفَقيهُ المُشاوَرُ الأستاذ أبو الحَسَن علي بْنُ لبّال أدامَ اللّهُ رفْعتَه، وقالَ ابنُ رشيق[26] : الْمَعْنى معَ اللفظِ في الشّعر كالرّوح في الجَسَد، فإذا اختلّ من الروح شيء في الجسد ضعف بعض الجسد، وجاءَ ناقِصاً وظَهَرتْ دمامَتُه كشَلَلِ

---

(24) انظر يتيمة الدهر 1 : 35 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وفي عبارة المؤلف شيء من القلق والاضطراب، وها هو كلام ابن رشيق : «وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه، وكان الصنوبري والخبزرزي مقدّمين عليه للسن ثمّ سقطا عنه». العمدة 1 : 101.

(25) هذا من المقامة الموفية ثلاثين، وهي مقامة الشعراء من مقامات السرقسطي اللزومية، وفي عبارة المؤلف شيء من التصرف، كما أن الكلام عن المتنبي في المقامات يأتي بعد ذكر البحتري وابن الرومي وابن المعتز. المقامات اللزومية : 229، 232 تحقيق د. حسن الوراكلي، نسخة مرقونة.

(26) ينقل المؤلف هنا عن العمدة بتصرف وتلخيص، انظر نص ابن رشيق بتمامه في العمدة 1 : 124.

الْيَد والرِّجْل وغَيْرِ ذلك، إذا بَطَلَ بريحٍ أَوْ بعارضٍ يَعْرِضُ فيه، فإذا ذهَبَ الرّوح منْهُ وهو المَعْنى بَقِي اللفْظُ لا مَنْفَعَةَ فيه كالجَسَد الخالي من الرُّوح.

وقيل[27] إنّ المَعْنى للّفْظ كالصّورةِ للثّوْب، فمَهْما كانَتِ الصّورةُ حَسَنَة في الثوب الحَسَن، كان ذلك أَعْلى للنّاظِر وأَوْقَع في الخاطِر، ومهما كانا قَبيحَيْن، كانا كذلك في النَّفْسِ والعَيْن، فالصّورةُ الْحَسَنة في الثّوب القَبيح أحسنُ، من الصّورة القَبيحة في الثَّوْب الحَسَن، لأنَّها هيَ المعنى، ومَوْقِعُها في القَلْبِ أَحْلى وأسنى.

قالَ الفَقيهُ الْمُشاوَرُ الأستاذ أبو الحَسَن علي بْنُ أحمد بْنُ لبّال أعَزَّه الله تعالى، وعَلَى ذكْرِ «حتّى أذّنَ في شعْرِه وكَبّر» هجاهُ بعضُ الشّعراء فقال :

أرادَ حبيبٌ أنْ يحوكَ قصيدةً بمدْحِ أميرِ المؤمنينَ فَأَذّنا
فقُلْنا لهُ لا تعجلَنْ بإقامةٍ فلَسْنا على طُهْرٍ فقالَ وَلا أنا[28]

وعلى ذِكْر طَبْع أبي الطيّب وصِناعةِ حَبيب [نَذْكُرُ] ما مثّلَه العلماءُ بيْنَ أهل السُّنّة والصّوفية، وذلك أنّ ملكاً من المُلوك أمَر فارِسياً وروميّاً أن يُرِيَ كُلُّ أحدٍ منهما أَبْدَع صناعَتِه، فَبَنَى لَهُما حائطَيْن ليُصَوّرَ كلّ واحد في حائِطِه أَبْدَع ما يَعْرِفُ منْ صناعَتِه وَضَرَب بَيْنَهُما سِتْراً لئلاّ يَرَى أحَدُهما ما يصْنَعُ الآخر، وقالَ لَهُما : ليصْنَعْ كُلُّ واحدٍ منكُما أحْسَنَ ما يُتْقنُ من التّصْوير والنُّقوش والتزْويق، فجعَلَ الفارسي يُحكِم في ناحيته بدائعَ الصُّوَر، ويضاهي في لبّة الروْض قلائدَ الزّهَر، والرّومي لا يَزيدُ بَعْدَ تلبيس الحائط بالجصّ على الدّلْكِ فيه [بآلةٍ ؟] قَدْ

---

(27) جاء في العمدة 1 : 127 : «وبعضهم ــ وأظنه ابن وكيع ــ مثّل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها، وتضاءلت في عين مُبصرها».

(28) جاء في الوافي لصالح بن شريف الرندي : ولما أنشد للمعتصم قول أبي تمام :

اللّه أكبرُ جاء أكبرُ من جَرَتْ وتحيّرتْ في كنْهِهِ الأوهامُ

قال بعض من حضر :

أرادَ حبيبٌ أنْ يقولَ قصيدةً بمَدْحِ أميرِ المُؤمِنينَ فأذّنا
فَقُلْتُ لَهُ لا تَعْجَلَنْ بإقامَةٍ فلَسْنا عَلَى طُهْرٍ فقالَ وَلا أُنا

(مخطوط الوافي) وقد نسب البيتان في الموشّح لمروان بن أبي الجنوب يقولهما في علي بن الجهم (الموشح : 527) ونسبهما ابن المعتز في الطبقات : 415 لأبي العيناء.

طبعَها، وأتْقَنَها وأبْدَعَها، ليتقبلَ بذلك كُلَّ ما صنعَ الفارسي ونقَشه، فَهذا يُصَوِّر ويُتْقِن، وذاكَ يذْلك ويُمْعِن، فلمّا تَمّ لَهُم العام، وحانَ مِنْ عَمَلهم التّمام، قالَ لَهُما المَلِك : ليُرِنا كُلُّ واحِد مِنْكُما ما صَنَعَ، لأُخْبَرَ أيُّكما أبْدَع، في صناعَتِه وأبْرع؛ فأزالا السَّتْر الذي بينَهُما فَعَكَسَ ذلك الرّومي كُلّ ما صَنَع الفارسي لنَفْسِه، ولم يزل ذلكَ على جصّه، وأتى بالأمْرِ مِنْ فَصِّه، فغلَب الرُّومي[29].

وكَذلك أبو الطَّيّب برقّةِ طَبْعِه، ورَوْنَقِ شِعْرِه، وصِقالِ لَفْظِه، وفِرِنْد مَعْناه، يضمّنُ في شِعْرِه صِناعَة كُلِّ شاعِر مَعَ ما أُعْطِيَهُ من الطَّبْع الرَّوْنَقي، والنّور الأُفُقي.

قالَ الفقيهُ المُشاوَر الأستاذ أبو الحَسَن علي بن لُبَال أدامَ اللّهُ عِزّته : وأما قصّةُ الحاتِمي[30] معَ أبي الطيّب ورَدُّه عليه، وتفضيلُ كلام حبيبِ على كلامِهِ فكما قالَ عُمَرُ بن أبي رَبيعة :

حَسَداً حُمّلْنَـه مِـن أجْلِهـا ... وقَديماً كانَ في النّاس الـحَسَد

وكما قال الآخر :

حَسَدوا الفَتَى إذْ لَمْ ينالوا سَعْيَهُ ... فالنَّـاسُ أعـداءٌ لـه وخُصومُ
كَضَرائر الحَسْناءِ قلْن لوجْهِهـا ... حَسداً وبَغْيـاً إنّـه لَدميـمُ[31]

وقال أبو الطيّب :

وكَمْ مِنْ عائبٍ قَولاً صَحيحاً ... وآفَتُـهُ مِـنَ الفَهْـمِ السّقيـمِ
ولكـن تأخـذ الأذهـانُ مِنْـهُ ... عَلَى قَـدْرِ الْقرائـح والعُلـومِ

وكما قالَ ابن بسّام (21) : والحسَدُ مَوْروث، وقَديمٌ لا حَديث، في قصّة صاعِدٍ اللُّغوي مع الزّبيدي وابْن العَريف والعاصِمي بيْنَ يَدَي المنْصور ابْنِ أبي عامِر إذْ دخَلَ عليهِ بباكورةِ وَرْدٍ فقال المنصورُ لصاعِدٍ صفْها، فقال :

---

(29) لم أتمكن من الوقوف على هذه الحكاية في المصادر التي بين يدي.

(30) قصة الحاتمي مع أبي الطيب مفصلة في الموضحة التي حققها الدكتور محمد يوسف نجم، وانظر تحليلاً لقصة الحاتمي مع المتنبي في تاريخ النقد الأدبي للدكتور إحسان عباس : 263-270.

(31) ينسب هذان البيتان إلى أبي الأسود الدؤلي.

أَتَـــتْكَ أبـــا عامِـــرٍ وِرْدَةٌ   يذكّـــركَ الـــمِسْكُ أنْفاسَهـــا
كَعــذْرَاء أَبْصَرَهـــا مُـــبْصِرٍ   فغَـــطّتْ بِأكْمامِهـــا رأسَهـــا

في قصّة طَويلة، فحسَدَهُ كلُّ مَنْ حَضَر، وقال : هذا شعر قديمٌ مُشْتَهِر[32].

والذي عابَ الحاتِمي على أبي الطيّب قد احتج أبو الطيب بمِثْلِه من شِعْر حَبيب، وأتَى بالْعَجَب العَجيب، وليسَ هذا كُلّه بِحُجّة لأنّ الشاعِر كالغَوّاص تارةً يخرجُ بدُرّة، وتارةً بآجُرة، وتارةً بسَبجَة، وأخرى بِبَعْرةٍ مُدَحْرَجَة، ولابأْسَ أنْ يَنْزِلَ منَ القَوْل الفَصْل، إلى المَنْطِق الفَسْل، في البَيْتِ والبَيْتَيْن من القَصيدة، كما تُنْظَم السَّبَجَةُ بجانب الْفريدة، ولَوْلا البؤْسُ ما طابَت النَعْماء، وفي حالِك الظّلام يُعْرَف حُسْنُ الضّياء، وبضدّها تتميّزُ الأشياء.

قيل لبَشّار بْن بُرد. يا أبا مُعاذ : كم بين قولك :

يا أطيب النّاسِ ريقاً غيْرَ مُخْتَبِرٍ   إلاّ شَهادة أطْراف الـمَساويك
يا رَحْمةَ اللّه حُلّي في منازلنا   حَسْبي برائحة الفردَوْسِ مِنْ فيك

وبَيْنَ أنْ تقول :

إنّمـا عَظْـم سُلَيْمـى خلّتـــي   قَصَب السّكّر لا عظْمُ الجَمَلْ
وإذا قُـــرّبَ منْهـــا بصَلٌ   غلَب المِسْكُ على ريح البَصَلْ[33]

فقال : إنّما الشاعِر كالبَحْر يقذف مَرّةً بصَدَفة، ومرّةً بحَشَفَة؛ وقيلَ له أيضاً كيف تقول :

إذا ما غَضِبْنا غَضْبةً مُضَرِيّةً   هَتَكْنا حِجاب الشّمس أو قَطرتْ دَما
إذا ما رَفَعْنا واحداً مِنْ جَمَاعَةٍ   عَلَى مِنْبرٍ صلّى عَلَيْـهِ وَسَلّمـا

---

(32) قول ابن بسام وقصة صاعد التي أشار إليها المؤلف في الذخيرة ق 4 : 17–19.

(33) في زهر الآداب للحصري : قيل لبشار : كم بين قولك :

قد زرتِنا مرةً في الدّهْر واحـدةً   عُودي ولا تَجْعليها بيضةَ الـديك

وبين قولك :

إنما عظـم سليمـى خلّتـي   قصب السكـر لاعظـم الجمـل

فقال : إنما الشاعر المطبوع كالبحر، مرة يقذف صدفة ومرة يقذف جيفة.

وهذا فيه منْ جزالةِ اللّفْظ ما لا يَخْفى عَلَى أحد، وأنت تقولُ :

حَبَابَـــــةُ رَبّـــــةُ البَـــــيْتِ تـصُـبُّ الخَـلَّ فـي الـزّيْـــتِ
لَهــــا سَبْـــعُ دجاجـــــاتٍ وديـــكٌ حَسَـــنُ الصّـــوْتِ

فقال إنّما أقولُ لكلّ واحدٍ عَلى قَدْره، وأنا إذا قلت هذا علفتْ دجاجها ورخّمت بيْضها وأطعمتني.

وقال أبو العباس المبرد[34] : وقد يضطرُّ الشاعِر المُفْلِق والخطيب المصْقَع والكاتبُ البليغ فيقعُ في كلامهم اللفظ المستنكر والمعنى المستغلق، فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه.

وإن شاء قائلٌ أن يقول بأنّ الكَلامَ الْقَبيح في الكَلام الحسَن أظْهَر، ومجاوَرَتُه لَهُ أشْهَر كانَ ذلك، ولكن يُغتفَر الشّيء القَبيح للحسن والبعيد للقريب.

وقال المعرّي : جيّدُ قول الشعر وإنْ قَلّ يَغْلِب (23) على رَديئه وإن كثُر ما لَمْ يكُن الشّعْرُ لهُ صِناعَة، ولطبعه مرناً وعادة[35].

وكَلامُ أبي الطيّب كلُّه حَسن، ولكنّ الحُرّ مُمْتَهَن، وَرَديء أبي الطيّب في جَيّدِه كالقَطرَةِ في البحر، أو الدرّة في التّبر، فَهلاّ نَظَر الحاتِمي هذا النّظَر، وترَكَ القليلَ لِلْكَثير وغَفَر، وقارَنَ هذا الْعَيْبَ بعَيْب صاحِبِه[36] فَستَر، ألا تَرى أنّ الشُّجاعَ البَطَلَ رُبّما خَامَ[37]، وحادَ عَن الإقْدام، إلى الإحْجام، وآثَر الْفِرار، عَلَى القَرار، فلا يكونُ ذَلِكَ كُلُّه عَيْباً إذا عُرِفتْ بَسَالَتُه، وبُلِيَ كَرُّهُ في الحَرْب ومُجاولَتُه. ألا تَرى إلى قَوْلِ زُفَر بن الْحارِث وكانَ فَرَّ يَوْم مَرْج راهِط عَنْ أبيه وَأخيه فقال :

أَيُذْهَبُ يومٌ واحـدٌ إن أسَأْتُـه بِصالِحِ أيّامـي وحُسْن بَلائيـا

(34) انظر الكامل 1 : 27 ت. محمد أبو الفضل والسيد شحاته.

(35) من خطبة سقط الزّند؛ وفيه : «والجيد من قيل الرجل...» قال الخوارزمي : عني بالقيل الشعر. انظر شروح سقط الزّند 1 : 24.

(36) يعني به أبا تمّام.

(37) خام : جبن وأحجم.

ولم تر منّي زلّةً غَيْر هـذه فراري وتَرْكي صاحِبَيّ وَرائِيا[38]

وقالَ عَمْرو بْنُ معدي كَرِب ولقي بني عَبْس وفيهِمْ زُهير بن جَذيمَة العَبْسي ففرّ عنهم فقال :

أجاعِلـةً أم الثّوَيـر خَزايَـةً علَيّ فِراري إذْ لقيتُ بَني عَبْسِ

لقيت أبا شأسٍ وشأساً ومالِكاً وَقَيْساً فجاشَتْ من لقائِهِم نَفْسي

وليسَ يعابُ المْرءُ من جُبْنِ يَوْمِه إذَا عُرِفتْ منْهُ الشّجاعةُ بالأَمْسِ[39]

ومثلُ هذا كثير.

قالَ الْفَقيهُ المُشاوَر الأستاذ أبو الحَسَن علي بْنُ لُبّال أدامَ آللّهُ عزّته (24) وقالَ الفقيهُ الأستاذُ النّحوي ابن مُسلم[40] عِنْدَ سؤالِنا إيّاه، واقتباسِنا منْهُ ما حَفِظَه من العِلْم ووعَاه : إنّ الْوَزير الْفَقيه الأديبَ اللّغَوي أبا مَرْوان بْن سِراج[41] كانَ لا يُقْرِيءُ مِنْ شِعْر أبي تمّام إلاّ ثلاثة أبيات، وكان يقرىء من شعر أبي الطّيّب خمْسَةَ أبيات. وهذا أيضاً شاهِدٌ على طَبْع أبي الطيّب، فقَدْ قيلَ[42] : خَيْرُ الشّعر ما ورّاكَ نفْسَه، وشرّ الشّعْر ما سُئِلَ عَنْ مَعْناه، ولِلّهِ دَرّ ابنِ عَمّار حيثُ يقولُ يمْدَح المُعتضِد بالفَصاحة :

رَقيقُ حواشي الطّبْع يَجْلُو بَيانُه وُجُوهَ المعاني واضِحاتِ المَباسِمِ[43]

---

(38) العقد الفريد 1 : 146.

(39) المصدر نفسه 1 : 147 وفي الأبيات تحريف في الأصل.

(40) تقدم ذكره والتعريف به.

(41) ترجمته ومصادرها في الذخيرة.

(42) لم أهتدِ الآن إلى صاحب هذا القول.

(43) لم نقف على هذا البيت، ويبدو أنه من قصيدته المشهورة :

عَلَـيّ وإلاّ مـا بُكـاء الغمـائم وفيّ وإلاّ مـا نيـاحُ الْحَمائِـمِ

وهي قصيدة تنيف على 90 بيتاً ولم نقف عليها كاملة، ومنها في مدح المعتضد :

إذا رَكبـوا فانظـرْهُ أوّلَ صاعـنٍ وإن نزلـوا فـارصده آخِر طاعِـمِ

أبَـى أن يـراه اللّـه إلا مقلّـداً جميلـةَ سيـف أو حمالـة غـارمِ

هذا وللمعتضد ديوان شعر جمعه ابن أخيه إسماعيل، انظر الحلة السيراء 2 : 43 والمعجب والذخيرة.

فَلَمْ يمْدَحْهُ باستغلاق اللّفْظ، ولا بِبُعْد الغَوْر وضَعْف المَعْنى، بلْ مدَحه برقّة اللّفظ وبَيان المَعْنى.

قال ابنُ رشيق[44] : لا يكونُ الكلام بليغاً حَتّى يُسابق مَعْناه لَفْظَه ولَفْظُه مَعْناه، ولا يكونُ لفْظُه أسْبَقَ إلى سَمْعِك، مِنْ مَعْناهُ إلى قَلْبك.

وسأل عامر بن الظرب العدواني حَمامة الدّوسي بَيْنَ يدَيْ بَعْضِ مُلوكِ حِمْير فقال : مَنْ أَبْلَغُ النّاسِ ؟ فَقال : مَنْ جلا المَعْنى العَزيز، في اللّفْظِ الْوَجيز، وطَبّق المَفْصل قَبْل التّحْزيز.

وقيل إن أفْصَحَ الكَلام وأَبْلَغَ الْبَلاغَة كلامٍ إذا سمِعْتَه ظَنَنْتَ أنّك تصْنَعُ مِثلَهُ فإذا رُمْتَه لم تقدِرْ علَيْه[45].

وقد قيل : خيْرُ الكَلام ما فَهِمتْه العامّة ولَمْ تُنكِرْه الخاصّة[45].

وقد قيل : إنّ أبلَغَ البلاغة ما لَمْ يؤْتَ السامع من إفهام المسْتَمِع ولا المُسْتَمِع من فهم السامع، ذكر هذا عدة من أصحاب الكلام كقدامة وغيره[47].

وقد قيل : إنّ خَيْر الكَلام لمحة دالّة[48] وهذا كثير لأنّ الكَلامَ إذا كان قليلَ الفُضول، سَهْل الألفاظ غَيْر وَحْشِيّها، وخَرَج من اللُّغة الغريبة، إلى الألْفاظ المُسْتعملة الْعَجيبة، كانَ أَسْلَس وأقْرَب إلى الْحُسْن.

قالَ الفقيهُ المشاوَر الأستاذ أبو الحسَن علي بن لبّال رَحِمه الله : وقال الجاحظ :

---

(44) انظر العمدة 1 : 245 وفيها : «من حلّى المعنى المزيز» وقد تكلف المحقق في تخريجها، والصواب ما ورد هنا وفي نسخ خطية من العمدة.

(45) هذا هو ما يعبّر عنه بالسهل الممتنع.

(46) في المستطرف 1 : 51 : قال أبو عبد الله وزير المهدي : «البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة». وفي التقريب لحد المنطق لابن حزم : «البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي»، التقريب : 204.

(47) في البيان والتبيين 1 : 101 : وكان الإمام إبراهيم بن محمد يقول : «يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع» وقد استحسن الجاحظ هذا القول واعترضه التوحيدي، انظر البصائر 1 : 362-363.

(48) الكامل 1 : 17.

كما لا يَنْبغي أن يكون اللّفظُ عامّياً، ولا ساقِطاً سوقياً كذلك يَنْبغي أنْ لا يكونَ وَحْشِيّاً إلاّ أنْ يكونَ المتكلّم بدَوياً أَعْرابياً[49].

وقالَ بعضُهم لحَبيب في مجْلسٍ حافلٍ وأراد تَبْكيته : لمَ تقولُ منَ الشّعرِ ما لا يُفْهم، فقالَ لَهُ حَبيب : وأنْت لِمَ لا تفْهُم ما يُقال[50]، والمطبوع لا يُعَرّض نفسَه إلى هذا الطّعْن باستِغْلاق اللفظ وإبْهامِ المَعْنى كأبي الطيّب، ولذلكَ كانَ ابنُ سراج يُقْرىء مِنْ شِعْر المُتَنَبّي أكْثَرَ مِنْ شِعْر حَبيب لسُهولةِ لَفْظِه وبَيانِ مَعْناه.

وقالَ أبو العباس المُبَرّد في مثلِ هذا : «فمن ألفاظ[51]]العرب البينة القريبة المفهمة، الحسنة الوصف، الجَميلة الرصف، قول الحطيئة :

وذاك فتى إن تأتِهِ في صنيعةٍ إلى مالِـهِ لا تأتِـه بشفيـع

وكذلك قول عنترة :

يخبرْكِ مَنْ شهِدَ الوقيعـةَ أنّنـي أغْشى الوَغى وأعِفّ عنْد المَغْنَمِ

وكما قال زهير :

على مُكثريهمْ رزق مَنْ يعتريهمُ وعند المُقلّينَ السماحةُ والبـذلُ

ومما وقع كالإيماء قول الفرزدق :

ضربَتْ عليكَ العنكبوتُ بنَسْجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف، فقال فقضى عليك به الكتاب المنزل، يريد قول الله تبارك وتعالى : ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ ومن كلامه المستحسن قوله لجرير :

فهلْ ضربةُ الرُّومي جاعلةٌ لَكُمْ أباً عن كليب أو أباً مثْلَ دارِمِ

ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قوله :

وما مثله في الناس إلا مملّكـاً أبـو أمّـه حـيٌّ أبـوهُ يقاربُـهْ

---

(49)

(50) ينسب السؤال إلى الشاعر أبي العميثل، انظر وفيات الأعيان.

(51) ما بين معقفتين صفحة بيضاء في الأصل، وقد قدّرت أن ابن لبال نقل فيها كلام المبرد في الكامل الذي أوردته ورقعة ابن ورقاء التي نقلتها من المنتقى المقصور لابن القاضي.

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو خال هشام بن عبد الملك فقال : وما مثله في الناس إلا مملّكاً يعني بالمملك هشاماً أبو أمّ ذلك المملّك أبو هذا الممدوح، ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحاً وكان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول وما مثله في الناس حَيٌّ يقاربه إلا مملّكٌ أبو أمّ هذا المملك أبو أم هذا الممدوح فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير[52].

ومن الوحشي المتكلّف، والركيك المستضعف، والمعقّد البارد رقعة ابن ورقاء ونصها :

«صين امرؤ واعين امرؤ دعا لامرأةٍ مقسئنة أولعت بأكل الطرموق فأصابها منه اسمئلال أن يهب لها الله اطرغشاشاً وابرغشاشاً».

وطرحها في المسجد فما[53] قرأها أحد إلا لعنه ولعن أمّه.

قالَ الفَقيه المُشاوَر الأستاذ أبو الحَسَن علي بن لُبّال أدامَ اللّهُ رفْعَته : معنى صين من الصيانة، وأعين من الإعانة أي أعانه الله، وقوله مُقْسَئِنَة، المُقْسَئِنّةُ الشَّديدةُ الْكِبَر، يقال اقْسَأَنّ العُود إذا يَبِس واشتدّ يبسُه وقَوْلُه الطّرموق، وهو الطّفَل، فإذا قدّمت الميم على الرّاء قلْتَ الطُّمْروق، وهو الخُفّاش، والطّفَل بتَحْريك الفاء وهو الصّواب، ولا يُقال بالإسْكان، وقولُه : بالإطرغشاش والإبرِغْشاش، يُقال : اطرغشّ الرَّجُل وابرغَشّ، وقَشْقَشَ إذا أفاقَ مِنْ مَرَضِه، والمُقَشْقِشتان : المُعَوّذتان قال الشاعر :

أعيذُكَ بالمُقَشْقِشَتَيْنِ مِمَّا أحاذِرُه ومِنْ شَرّ الْعُيونِ[54]

فهذا وإن كانَ كَلاماً عربياً يَقْبُح في الْمسامع، ويُثْقِل على كلّ سامِع، لخُشونتِه وقلّةِ استِعْمالِه، ولَنا في كتاب الله الكَريمِ قُدْوة، وكَفى به للْمُتأسّي بِهِ إسْوة.

---

(52) الكامل 1 : 17–18.
(53) المنتقى المقصور لابن القاضي، مخطوط، ولم أتمكن من الوقوف على الحكاية في غيره.
(54) ورد البيت غير منسوب في كتاب ألف باء للبلوي 2 : 402.

قالَ الفَقيهُ الْمشاوَر الأستاذ أبو الحَسَن علي بن لبّال :

ومَعَ هذا فَلاَ أُخْلي أبا تمّام مِنْ فَضيلة، ولاَ أُعَرّيه عنْ خَصْلَةٍ جَميلة، بَلْ أعتقدُ أنَّهُ شاعرُ إحْسان، وفارسُ هذَا الشّان، وهُوَ مَعَ أبي الطيّب كفرسَيْ رِهان، في عدّة أبْيات، وكثيرٍ من المُقَطّعات، كقول أبي تمّام في وصْف القلم :

لكَ القَلَمُ الأعْلى الّذي بشباتِه ... تصابُ من الأَمْرِ الكلَى والْمَفاصِلُ

لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه ... وأرْيُ الْجَنَى اشتارتْهُ أيْدٍ عواسِلُ

لَهُ الخلَواتُ اللاّءِ لولا نَجِيُّها ... لَما اختلَفَت للملك تلكَ المحافِلُ

لَهُ ريقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وقْعَها ... بآثاره في الشّرقِ والْغَرْبِ وابِلُ

فصيحٌ إذا استَنْطَقْتَهُ وهْوَ راكِبٌ ... وأعجم إنْ خاطبْتَهُ وَهْوَ رَاجِلُ

إذا ما امْتَطى الخَمْسَ اللّطافَ وأُفْرِغَتْ ... عليهِ شِعابُ الْفِكْرِ وَهْي حوافِلُ

أطاعَتْهُ أُطْراف الْقَنا وتَقَوّضَتْ ... لِنَجْواهُ تَقْويض الْخِيام الْجحافِل

إذا استَغْزَرَ الذّهْنَ الذكي وأَقْبَلَتْ ... أعاليهِ في القِرْطاسِ وَهْيَ أسافِلُ

وقَدْ رَفَدَتْه الخِنْصران وسدّدت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامِلُ

رأيت جَليلاً شَأنُه وهْوَ مُرْهَفٌ ... ضَنًى وَسَميناً خَطْبُه وهو ناحِلٌ[55]

وهذِه لعَمْرِي قِطْعَةٌ بديعةُ النَّسْج، رائِقَة الدّرْج، لم يُحكْ عَلَى مِثالِها ولا نُسِج عَلَى مِنْوالِها.

وَأرْبى عَلَى أبي الطيّب في قوله :

خَبَتْ نارُ حَرْبٍ لم تَهِجْها بنانُهُ ... وأَسْمَرُ عُرْيانٌ مِنَ الغُصْن أُصْلعُ

نَحيفُ الشَّوَى يَعْدو عَلَى أُمِّ رأسِهِ ... ويَخفَى فَيَقْوى عَدْوُهُ حينَ يُقْطَعُ

يَمُجُّ ظَلاَماً في نهارٍ لِسانُهُ ... ويُفْهَمُ عن منْ قالَ ما لَيْسَ يُسْمَعُ[56]

---

(55) الأبيات من قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

متى أنتَ عَنْ ذُهْلية الحي ذاهِلُ ... وقلبكَ منها مدّةَ الدّهرِ آهِلُ

انظرها في ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ج 3، ص 122 وما بعدها، وقد كان لها التفضيل والتقديم على سائر شعر أبي تمام عند الأندلسيين، انظر طبقات الزبيدي : 306–307 والعقد الفريد 4 : 192.

(56) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، ج 2، ص 421.

وهذه لعَمْري قطْعَةٌ تدلّ على طَبْعٍ عَفْو، وماءٍ صَفْو، ولكن الأُولى أَعْلى، وأَلْيَقُ بالتقديم وأَوْلى.

قالَ الفقيهُ المُشاوَر الأستاذُ أبو الحَسن عليّ بنُ أحْمد بْنِ لُبّال أدامَ الله عزّتَه بمنّه وكَرَمه : وَأَنا أَرْغَبُ ممّنْ تَصفّح كَلامِي، وتحقّقَ منْهُ سَرْدي ونِظامي، في هذا التّأليف الّذي خَرَقْتُ فيه حِجاب السّخف، ولمْ أَستَتِرْ فيه من العَقْل بسِجف، فتعرّضتُ فيهِ للأَلْسِنة، ونَبّهتُ لعِرْضي مَنْ كانَ عنْهُ ذا سِنَة، وبَلّغتُ الناقدَ سُولا، ولَمْ أُرِدْ ذلكَ ولكنْ ليَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعولاً.

فَعَلى مَنْ اعْتَزَى إلى عِلْم، ووُصِفَ بذكاءٍ وفَهْم، أَنْ ينْظُرَ بعَيْن الإغْضا، ويتصفّح تواليفَ مَنْ مضى، فكَمْ في الدّفاتِر، مِنْ سخيفٍ فاتِر، وَلَو اقتصرَ المُتأَخّرونَ عَلى علْمِ المُتَقَدّمين لذَهَب عِلْمٌ كثير، وَأَدبٌ غَزير، وأما الجاهِل فَمَنْ ضاقَ في العِلْم ذَرْعُه، وقَصر به فهْمُه وطَبْعُه، حتّى يظُنّ أَنْ لا عِلْمَ إلا ما وَعاه، ولا تحقيقَ إلاّ ما نَدَبَهُ فَهْمُه إلى مَعْرفتِه ودَعاه، فَما دِريَ جَهْلُه، وأشدُّ ما جَنى عَلى عِلْمٍ ما سَطّرَهُ السّخيفُ عَقْلُه.

وَإذا خَفيتُ عَنِ الْغَبي فَعَاذِرٌ ... أَلاّ تَـراني مُقْلَـةٌ عَمْيـاءُ[57]

واللّهُ المَوَفّقُ لِلصّواب، وصلّى اللّهُ عَلى محَمّد نبيّه ما زُيّن بِاسْمِهِ كتاب، وما عَذُبَ ذكْرُه صَلّى اللّهُ عليهِ وسلّم في الأَفْواه وطاب، وسلّم تسليماً كَثيراً.

تمّ التأليف والحمدُ لله ربّ العالمين والصّلاة على محمدٍ وآله أجْمعين ضحْوة يوم الأربعاء غرة ربيع الثاني سنة 1003هـ.

(57) المصدر نفسه 1 : 18.

الملحق الثالث

ترجمة ابن لبال آخر[1]

---

(1) المطمح : 93 وكتب فيه خطأ «ابن لسان»، وفي ق م أحياناً : ابن لبان، ونفح الطيب 4 : 231–234، ومنهما أخذنا هذه الترجمة التي لا نتحقق الآن صلة صاحبها بابن لبال الشريشي.

وقال في ترجمة أبي الحسن ابن لبال : شاعر سمح، متقلد بالإحسان متشح، أمَّ الملوك والرؤساء، ويمّم تلك العزّة القَعْساء، فانتجع مواقع خيرهم، واقتطع ما شاء من مَيْرهم، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان، فجالت به في ميدان الهوان، فكسد نفاقه، وارتدَّت آفاقه، وتوالى عليه حرمانه وإخفاقه، وأدركته وقد خبنته سنونه، وانتظرته مَنونه، ومحاسنه كعهدها في الاتقاد، وبُعدها في الانتقاد، وقد أثبتُّ منها ما يعذب جنىً وقِطافاً، ويستعذب استنزالاً واستلطافاً، فمن ذلك قوله يستنجد الأمير الأجلَّ أبا إسحاق ابن أمير المسلمين[2] :

قلْ للأمير ابن الأمير بل الذي ... أبدا به في المكرمات وفي الندى
والمجتني بالزُّرْقِ وهي بنفسجٌ ... وَرْدَ الجراحِ مضعَّفاً ومنضَّدا
جاءتكَ آمالُ العُفاةِ ظوامئاً ... فاجعلْ لها من ماء جودك موردا
وانثر على المدّاحِ سيبَكَ، إنهم ... نثروا المدائح لؤلؤاً وزبرجدا
فالناس إن ظُلموا فأنت هو الحمى ... والناس إن ضلوا فأنت هو الهدى

أخبرني[3] وزير السلطان أن هذه القطعة لما ارتفعت، اعتنت بجملة الشعراء وشَفَعَتْ، فأنجز لهم الموعود، وأورق لهم ذلك العود، وكثر اللغط في تعظيمها، واستجادة نظيمها، وحصل له بها ذكر، وانصقل له بسببها فكر.

وله من قطعة يصف بها سيفاً :

كُلُّ نهرٍ توقَّدتْ شَفْرتاه ... كاتّقادِ الشهاب في الظلماء
فهو ماء قَدْ رُكّبتْ فوق نارٍ ... أو كنارٍ قد ركبتْ فوق ماء

وكتب إليَّ[4] معزياً عن والدتي :

على مثله من مصابٍ وَجَبْ ... على من أُصيب به المنتجبْ
وقلبٍ فَروقٍ ولبٍّ خَفوقٍ ... ونفسٍ تشبّ، وهمٌّ نصبْ

(2) هو الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألّف له ابن خاقان قلائد العقيان.

(3) المتحدث هو الفتح ابن خاقان.

(4) المتحدث هو ابن خاقان أيضاً، وقد أورد في القلائد أيضا بعض ما قيل في رثاء والدته.

فقـد خشعتْ للتُّقـى هضبـةٌ ذؤابتها في صميـمِ العَـرَبْ
مِـنَ الجاعِـلاتِ محاريبَهـا هوادجَهـا أبـداً والقَـتَبْ
مـن القائمـاتِ بظـلّ الدُّجـى ولا مَـنْ تسامـرُ إلاّ الشُّهُبْ
فكمْ ركعتْ إثرها في الدجى تناجـي بها ربّهـا مِـنْ كَـثَبْ
وكمْ سكبتْ في أوانِ السجودِ مدامعَ كالغـيثِ لمّـا انسكَبْ
وقـدْ خَلّـفَتْ ولـداً بـاسلاً فصيحاً إذا ما قرا أو خطَبْ
يفـلُّ السيـوفَ بأقْلامِـهِ ويـكسرُ صُمَّ القنـا بالـقَصَبْ

وكان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم[5] أجلّ من جال في خَلَد، واستطال على جَلَد، رشأ يحيي باحتشامه، ويسترد البدر بلثامه، ويزْري بالغصن تَثَنّيه، ويثمر الحسن لو دنتْ قُطوفه لمجتنيه، مع لوذعية تخالها جريالاً، وسجية يختال فيها الفضل اختيالاً، وكان قد بعد عن أنسنا بحمص[6]، وانتضى من تلك القُمص، وكان بثغر الأشبونة فسدَّه، ولم ينفرج لنا من الأنس بعده ما يسدّ مسدَّه، إلى أن صدر، فأسرع إلينا وابتدر، فالتقينا وبتنا ليلة نام عنها الدهر وغَفَل، وقام لنا بما شئنا فيها وتكفل، فبينا نحن نفضُّ ختامها، وننفض عنّا غُبارَ الوحشة وقَتامها، إذا أنا بابن لبال هذا وقد دخل إذنه علينا فأمرناه بالنزول والتقيناه بترحيب، وأنزلناه بمكانٍ من المسرة رحيب، وسقيناه صغاراً وكباراً، وأريناه إعظاماً وإكباراً، فلما شرب، طرب، وكلما كرعها، التحف السلوة وتدرعها، ومازال يشرب أقداحاً، وينشد فينا أمداحاً، ويفدي بنفسه، ويستهدي الاستزادة من أنسه، فهتكنا الظلام بما أهداه من البديع، واجتلينا محاسنه كالصديع، وانفصلت ليلته عن أتم مسرة، وأعم مَبرة، وارتحل عثمان أعزه الله إلى ثغره، وأقام به برهة من دهره، فمشيت إليه مجدداً عهداً، ومتضلعاً من مؤانسته شهداً، فكتب ابن لبال هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره، ويجتهد في تجديد ذكره :

مـا شامَ إنسانُ إنسانٍ كـعثمانِ ولا كبغيته مـن حُسْنِ إحسانِ
بَدْرُ السيّادَةِ يـدو في مطالِعـهِ مـن المحَـاسِنِ محفوفـاً بشهبـانِ

---

(5) من قواد المرابطين وولاتهم بالأندلس.

(6) هي إشبيلية.

له التمامُ وما بالأفقِ من قَمَرٍ متمّمٍ دونَ أن يُرْمى بنقصانِ

به الشبيبةُ تُزهى من نضارتها كما تساقَطَ طَلٌّ فوق بستانِ

معصفرُ الحُسنِ للأبصارِ ناصعُهُ كأنّه فضةٌ شيبتْ بعِقْيانِ

نبّئت عنه بأنباء إذا نَفَحتْ تعطلتْ نفحاتُ المسكِ والبانِ

قامتْ عليهِ براهينٌ تصدّقها كالشكلِ قام عليه كلُّ برهانِ

قد زادها ابنُ عبيد[7] اللّه من وَضَحٍ ما زادت الشمسُ نورَ الفجر للرائي

باللّهِ بلّغهُ تسليمي إذا بلغتْ تلك الركابُ وعجّلْ غيرَ ليّانِ

وليتَ أنيَ لو شاهدتُ أُنسكما على كؤوسٍ وطاساتٍ وكيزانِ

فألفظُ الكَلِمَ المنثورَ بينكما كأنما هو من دُرٍّ ومَرْجانِ

لِلّهِ درُّكَ يا ذا الخطتينِ لقدْ خططتَ بالمدح فيهِ كلَّ ديوانِ

كلاكما البحرُ في جودٍ وفي كرمٍ أو الغمامةُ تَسقي كلَّ ظمآنِ

إن كان فارسَ هيجاءٍ ومعترك فأنتَ فارسُ إفصاحٍ وتبيانِ

فاذكرْ أبا نصرٍ[8] المعمورَ مَنْزِلُهُ بالرفد ما شئتَ من مثنًى ووُحدانِ

قصائداً لأخي ودّ وإن نَزَحَتْ بكَ الركابُ إلى أقصى خراسانِ

---

(7) هو الفتح ابن خاقان.

(8) كنية ابن خاقان.

الملحق الرّابع

بكار الأموي وشبه ابن لبال به[1]

(1) اثبت هذا الملحق هنا نقلا عن نفح الطيب لما بين بكار الأموي هذا وابن لبال من شبه قوي وكل واحدٍ منهما يمثل عزيز قوم ذهب مجد قومه وبقي فضل محتده.

قال صاحب السقط[2] : إنه اجتمع به في أشبونة، قال : قصدت منزله بها ونقرت الباب، فنادى : من هذا ؟ فقلت : رجل ممّن يتوسل لرؤيتك بقرابة، فقال : لا قرابة إلا بالتقى، فإن كنت من أهله فادخل، وإلاّ فتنحَّ عني، فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى، فقال : ادخل، فدخلت عليه فإذا به في مُصَلاّه وسبحة أمامه، وهو يعدّ حبوبها ويسبّح فيها، فقال لي : ارفق عليّ حتى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح، وأقضي حقك، فقعدت إلى أن فرغ، فلمّا قضى شغله عطف عليّ وقال : ما القرابة التي بيني وبينك ؟ فانتسبت له، فعرف أبي وترحّم عليه، وقال لي : لقد كان نعم الرجل، وكان لديه أدب ومعرفة، فهل لديك أنت ممّا كان لديه شيءٌ ؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلُّم الأدب، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به، فقال لي : هل تنظم شيئا ؟ قلت : نعم، وقد ألجأني الدهر إلى أن أرتزق به، فقال : ياولدي إنه بئسما يُرتزق به، ونعم ما يُتحلى به إذا كان على غير هذا الوجه، وقد قال رسول الله ﷺ : «إنّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً» ولكن تحلّ الميتة عند الضرورة، فأنشدني أصلحك الله تعالى ممّا على ذُكْرِك من شعرك، قال : فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به ممّا يوافق حاله فما وقع لي إلاّ فيما لا يوافقه من مُجون ووصف خمر وما أشبه ذلك، فأطرقت قليلاً، فقال : لعلك تنظم، فقلت : لا ولكن أفكر فيما أقابلك به، فقولي أكثره فيما حملني عليه الصِّبا والسخف، وهو لائق بغير مجلسك، فقال : يابني، ولا هذا كله، إنّا لا نبلغ من تقوى الله إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح، وإذا صح عندنا أن عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ومفسر كتاب الله تعالى ينشد مثل قول القائل :

إن يَصْدُقِ الطيرُ ننكْ لميسا

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا ؟ والله لا نشذ عن السلف الصالح، أنشدني ما وقع لك غير متكلف، فلم يمدني خاطري إلى غير قولي من شعر أمجُنُ فيه :

---

(2) هو المعروف بابن الامام، وكتابه سقط الأذهان هو كقلائد العقيان.

أبطـــأتَ عنّــــي، وإني لفــي اشتيــاقٍ شديــدِ
وفي يـــــدي لك شيء قــد قــام مثــلَ العمــودِ
لـــو ذقتــه مـــرة لم تعـــــــد لهذا الصدودِ

فتبسم الشيخ وقال : أما كان في نظمك أطهر من هذا ؟ فقلت له : ما وُفِّقت لغيره، فقال : لابأس عليك، فأنشدني غيره، ففكرت إلى أن أنشدته قولي :

ولمّا وقفتُ على رَبْعِهِمْ تجرعْتُ وجديَ بالأجرعِ
وأرسل دمعِي شرارَ الدموعِ لنارٍ تأجَّجُ في الأضْلُعِ
فقال عذولِي، لمّا رأى بكائيَ: رفقاً على الأدمعِ
فقلتُ لـه: هـذه سُنّـةٌ لمن حفظ العهدَ في الأربُعِ

قال : فرأيت الشيخ قد اختلط، وجعل يجيء ويذهب ثم أفاق وقال : أعد بحقّ آبائك الكرام، فأعدتُ فأعاد ما كان فيه وجعل يردده، فقلت له : لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه، فقال : وهل حرك مني إلاّ خيراً وعظة ؟ يابني إن هذه القلوب المخلاة لله كالوَرَق التي جفت، وهي مستعدة لهبوب الرياح، فإن هبّ عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء، وصادف منها طَوْعه، فأعجبني منزعه، وتأنست به، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع والانكماش، بل مازال يبسطني ويحدثني بأخبار فيها هزل، ويذكر لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له، ولا أعلم أكثره، فلمّا كثر تأنسي به أهويتُ إلى يده كي أُقبِّلها، فضمها بسرعة، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : راغباً لك في أن تنشدني شيئاً من نظمك، فقال : أما نظمي في زمان الصبا فكان له وقد ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأمّا نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله، وهو يثقل عليك، فقلت له : إن أنصف سيدي الشيخ نفعنا الله تعالى به أنشدني من نظم صباه، ومن نظم شيخوخته، فيأخذ كلانا بحظه، فضحك وقال : ما أعصيك وأنت ضيف وقريب ولك حرمة أدب ووسيلة قصد، ثمّ أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخنَقَتْهُ العَبرة :

ثِقْ بالـذي سَوّاكَ مـــن عَدَمٍ فإنّكَ من عَـدَمْ
وانظرْ لنفسكَ قبلَ قـرْ عِ السنّ من فرطِ الندمْ
واحذر وُقيتَ من الورى واصْحَبْهُـمُ أعْمـى أصَمْ

فد كنتُ في تيهٍ إلى أن لاحَ لي أهدى عَلَمْ
فاقْتَدْتُ نحو ضيائه حتى خرجتُ من الظُّلَمْ
لكنْ قناديلُ الهوى في نور رشدي كالحممْ

قال : فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه، وغُلِبَ على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلاّ بعد حين، فقال لي الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك، والله مرشدك ومنقذك، ثمّ قال لي : يابني هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمع فيما مضى والله وليُّ المغفرة، وإنّا لنرجو منه غفران الفعل، فكيف القول، وأنشد :

أطلَّ عِذارٌ على خَدّه فظنّوا سُلُوّيَ عن مذهبي
وقالوا غرابٌ لو شك النوى فقلتُ اكتسَى البدرُ بالغَيهبِ
وناديتُ قلبيَ أينَ المسيرُ وبَدرُ الدجى حلَّ في العَقربِ
فقال ولو رُمْتَ عن حُبِّهِ رحيلاً عصيتُ ولم أذهبِ

قال : فسمعت ما يقصر عنه صدور الشعراء، وشهدت له بالتقدم، وقلت له : لم أرَ أحسن من نظمك في جدّ ولا هزل، ثمّ قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم، ما أرى به بأساً بعد اطلاع مَنْ يَعْلَم السرائر، على ما في الضمائر، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء من يغفر الكبائر، ويغضي عن العظائم ؟ قال : فقلت له : فإن أسبغت علي النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلتَ ما تملك به قلبي آخِرَ الدهر، فقال : يابني لا مَلَكَ قلبك غير حب الله تعالى، ثمّ قال : ولا أجمع عليك ردّ قول ومنعاً، وأنشد :

أيها الشادنُ الذي حُسْنُهُ في الورى غريبْ
لحظُ ذاك الجمالِ يُطفىءُ ما بي من اللّهيب
وعليه أحوم دَهْري ولكنّني أخيب
كلّما رمتُ زورةً قَيّضَ اللّهُ لي رقيب

قال : فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه، فقلت له : زدني زادك الله تعالى خيراً، فأنشدني :

ما كان قلبيَ يدري قَدْرَ حبّكُمُ حتى بعدتم فلم يقدر على الجَلَدِ

وكنتُ أحسبُ أنّي لا أضيقُ به ... ذَرْعاً فما حان حتى فَتَّ في عضدي
ثمّ استَمَرَّتْ على كرْهٍ مَريرَتُـهُ ... فكاد يفرقُ بينَ الروحِ والجَسَدِ
عساكُمُ أن تلاقوا باللقا رَمَقي ... فليس لي مهجةٌ تقوى على الكمدِ

ثمّ قال : حسبك، وإن كلفتني زيادة فالله حَسْبُك، فقلت له : قد وكلتني إلى كريم غفور رحيم، فبالله إلاّ ما زدتني، وأكبَبْتُ لأقبّل رجليه، فضمهما وأنشد :

لِلَّـهِ مـن قـال لمّـا ... شَكَـوتُ فيـهِ نحولي
أمّـا السبيـلُ لـوصلي ... فما لـه مـن وصولِ
فقـلتُ حسبـي التماحٌ ... بحسنِ وجـهٍ جميـلِ
وجـهٌ تلـوحُ عليـهِ ... عَلامَـةٌ للقبـولِ
فقـال دعنـي لهذا ... تَعَـرُّضٌ للـفُضولِ
فقلتُ عـاتبْ وخـاطبْ ... بالأمـنِ أهـلَ العقـولِ

فملأ سمعي عجائب، وبسط أُنسي، وكتبتُ كل ما أنشدني، ثمّ قلت له : لولا خوفي من التثقيل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشد، فقال : إن عدت إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكرت، وأنشدتك، فما عندي ممّا أُضيفك غير ما سمعت، وما تراه، ثمّ قام وجاء من بيت آخر في داره بصَحْفة فيها حساً من دقيق وكسور باردة، فجعل يفتّ فيها، ثمّ أشار إليّ أن أشرب فشربت ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثمّ قال لي : هذا غذاء عملك نهاره، وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصالها، قال : فقلت له : ياعم، ومن أين عيشك ؟ فقال : يابني، عيشتني بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل البحر ما أقتات به، ولي زوجة وبنت يعود من غَزْلهما مع ذلك ما نجد فيه معونة، وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير، جعلنا الله تعالى ممّن يلقاه على حالة يرضاها، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة. قال : فتركته وقمت وفي نيتي أن أعود إلى زيارته، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خوف التثقيل، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام، فنقرت الباب، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن، وقالت : إن الشيخ خرج إلى الغَزْوِ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم، ناله كالجنون، فقلت له : ما شأنك ؟ فقال : أريد أن أموت شهيداً في الغزو، وهؤلاء جيران لي قد

عزموا على الغزو، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم، ثمّ احتال في سيفٍ ورمح وتوجّه معهم، وقال : نفسي هي التي قتلتني بهواها، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها ؟ قال : فقلت لها : مَنْ خَلّف للنظر في شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك، فالذي خلفنا له لا نحتاج معه إلى غيره، فأدركني من جوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً، فقلت : إني قريبه، ويجب عليّ أن أنظر في حالكم بعده، فقالت : يا هذا إنك لست بذي محْرَم، ولنا من العجائز من ينظر منا ويبيع غَزْلَنا ويتفقد أحوالنا، فجزاك الله تعالى عنّا خيراً، انصرف عنّا مشكوراً، فقلت لها : هذه دراهم خذوها تستعينوا بها، فقالت : ما اعتَدْنا أن نأُخذ شيئاً من غير الله تعالى، وما كان لنا أن نُخِلّ بالعادة، فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرك بزيادة دعائه، ثمّ عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه، فقالت لي المرأة : إنه قد قبله الله تعالى، فعلمت أنه قد قُتِلَ، فقلت لها : أُقُتل ؟ فقرأت : ﴿ولا تحْسِبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ الله ــ الآية﴾ (آل عمران : 169) فانصرفت معتبراً من حاله، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به. وكانت للمروانيين بالأندلس يد عُلْيا، في الدين والدنيا. انتهى.

الملحق الخامس

أيوب بن سليمان السهيلي
أو متاعب النسب الأموي[1]

---

(1) أثبت هذا الملحق هنا للإشارة إلى الفرق بين حال الأمويين الذين كانوا يضطرون إلى إخفاء نسبهم في عهد الطوائف والمرابطين وبين حالهم في عهد الموحدين كما هو الشأن بالنسبة إلى ابن لبال وغيره.

من السقط : إنه من ولد سُهَيْل بن عبد العزيز بن مروان، ممن خَمُلَ ذكره بالفتنة[2]، كان بقرطبة يخدم ابن الحاج[3]، فلمّا ثار ابن الحاج في مدة الملثّمين أنشده قصيدة منها :

إذا أنا لم أُبْلُغْ بكَ الأَمَلَ الذي قَطَعْتُ به الأيامَ فالصَّبْرُ ضائـعُ

فاعتذر له بالفتنة، فقال : إن لم يكن ما ارتقبته فليكن وَعْدٌ والتفاتٌ، أتعلل بهما، وأعلم منهما أني في فكر الأمير، فالسكوت يَطْمِسُ أنْوارَ الآمال، ويُغْلِقُ أبواب الرجاء.

وكان قد حرضه على ابن حَمْدِين[4]، فلما ظَفِر ابنُ حمدين حَصَل في يده أيوب، فكلمه بكلام ألان به قلبه، إلا أنه أمره أن يغيب / عنه فرحل إلى سَرَقُسْطَة ومِلكها ابن تِيْفلوِيت[5]، فكتب إلى وزيره ابن باجّة[6] :

يا مَـنْ بـه لاذَ العُفَـاةُ ونحوَه رَقت الأماني دُلَّنِي مـا أُصْنَـعُ
إن صُنْتُ وَجْهي عن سؤالٍ متُّ مِنْ جوعٍ ومثلي للوَرَى لا يَخْضَعُ

فتسبَّب له في إحسانٍ من قبل الملك، على أن يرحل عن بلدهم فراراً من هذا النسب، فقال : الحمد لله الذي أسْعَدنا به أوّلاً، وأشْقَانا به آخِراً.

واتفق له في طريقه أن أكرمه بدويٌّ نزل عنده، وقد تخيَّل أنه رسول من بعض ملوك الملثَّمِين، أو ممن يلوذُ بهم، فلما أعلمه غلامه أنه من بني أمية هاج وأخذ

---

(2) المقصود بها فتنة قرطبة في آخر العهد الأموي والعامري.

(3) من زعماء المرابطين وولاتهم بالأندلس، انظر خبر ثورته على سبيل المثال في المعجم لابن الأبار : 133، 146.

(4) ولي شئون قرطبة في سنتي 538، 539، انظر التكملة لابن الأبار ص 38 وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي (نشر بروفنسال) ص 103.

(5) هو أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت ممدوح ابن خفاجة ومخدوم ابن باجة، ولاه علي بن يوسف ابن تاشفين على شرق الأندلس، انظر الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى 125/1.

(6) أحد فلاسفة الأندلس المشهورين، وسيترجم له ابن سعيد في غرناطة، وقد اتخذه ابن تيفلويت وزيراً له نحو عشرين عاماً.

رحمه، وحَلَف أن لا يبقى له في منزل. فقال لغلامه : إذا سُئلت عني فقل إنه من اليهود، فإنه أمشَى لحالنا. وله من شعر :

قرطبــةَ الغــرّاءَ هــل أَوْبَــةٌ   إليك من قبل الحِمام المُصيب
ذكــرك قــد صيّرتُــه ديدنــاً   وكيـف أنساكِ وفيك الحَبيـب

ومات بسرقسطة في المائة الخامسة[7].

وحُكي أن أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يوماً عند ابن باجة والشاعر أبو الحسن ابن جودي[8] هناك، فتكلم المرواني بكلام ظهر فيه نُبْل وأدب، فتشوف أبو الحسن ابن جودي لمعرفته، وكان إذ ذاك فتيّ السن، فقال له : من أنت أكرمك الله تعالى ؟ فقال : هلا سألت غيري عني فيكون ذلك أحسن لك أدباً ولي توقيراً، فقال ابن جودي : قد سألت من المعرف عنك فلم يعرفك، فقال : ياهذا، لطالما مر علينا زمان يعرفنا من يجهل، ولا يحتاج مَنْ يرانا فيه إلى أن يسأل، وأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأنشد :

أنا ابن الألى قد عَوَّض الدهر عزهم   بـذلّ وقلـوا واستحبّـوا التنكـرَا
ملوكٌ على مرّ الزمــانِ بمشرقٍ   وغَرْبٍ دهاهـم دهرُهـمْ وتغيَّـرا
فلا تُذْكرَنْهُمْ بالسؤّالِ مُصابَهُــمْ   فـإنَّ حيـاةَ الـرُّزء أن يُتَذَكَّـرا

ففطن ابن جودي أنه من بني مروان، فقام وقبَّل رأسه، واعتذر إليه، ثمّ انصرف المرواني، فقال ابن باجة لابن جودي : أساء أدبك بعدما عهدت منك ؟ كيف تعمد إلى رجل في مجلسي تراني قد قربته وأكرمته وخَصَصْتُه بالإصغاء إلى كلامه فتقدم عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فاحذر أن تكون لك عادة، فإنها من أسوإ الأدب، فقال ابن جودي : لم أزل من الشيخ على ما قاله أبو تمام :

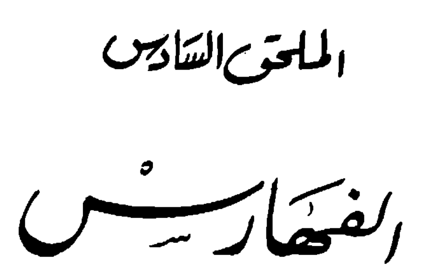
نأخذ من ماله ومن أدبه[9]

---

(7) المغرب 1 : 61-62.

(8) انظر ترجمة ابن جودي في

(9) نفح الطيب 3 : 334.


الملحق السادس
الفهارس

أعــلام شريــش

ــ أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، ت. 619هـ.
ــ أبو العباس أحمد بن محمد البكري الشريشي، ت. 611هـ.
ــ أبو العباس أحمد بن أحمد البكري الشريشي، ت. 641هـ.
ــ أبو زكرياء يحيى بن أحمد البكري الشريشي، ت. بعد 661هـ.
ــ أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن الفخار الشريشي، ت. 642هـ.
ــ أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري السماتي الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو الحسن علي بن أحمد القيسي الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ــ أبو الحسن علي بن رضا الله الشريشي، ت. بعد 617هـ.
ــ أبو الحسن علي بن زكريا الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ــ أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو الحسن علي بن محمد الحجري الشريشي، ت. بعد 617هـ.
ــ أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري (ابن الغزّال) الشريشي، ت. ح. 609هـ.
ــ أبو الحسن علي بن هشام اللخمي الشريشي، ت. 616هـ.
ــ أبو حفص عمر بن عياد اليحصبي الشريشي، ت. 545هـ.
ــ أبو موسى عيسى بن عبد الله اللخمي الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن الحجري الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ــ أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز اللخمي الشريشي الوجيه، ت. 6هـ.
ــ أبو القاسم عيسى بن يحيى بن عيسى الحجري الشريشي، ت. 637هـ.
ــ قاسم بن يونس الأنصاري الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد السماتي الشريشي، ت. 653هـ.
ــ محمد بن أحمد بن حكم الجذامي الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الشريشي (الغزّال)، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو علي عمر بن تميم الكتامي الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو علي عمر بن حبيب الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ــ أبو بكر محمد بن إبراهيم اللخمي الشريشي.
ــ محمد بن أحمد بن علي الحجري الشريشي، ت. بعد 617هـ.
ــ محمد بن حَمْد الذهبي الشريشي، ت. 658هـ.

ـ محمد بن حكم الشريشي، ت. ق. 7هـ.
ـ أبو عمرو محمد بن عبد الله بن غياث الشريشي، ت. 620هـ.
ـ أبو بكر محمد بن عبد الله الأزدي (ابن حباسة) الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ـ أبو بكر محمد بن علي التجيبي الشريشي (ابن حذلم)، ت. ق. 7هـ.
ـ أبو بكر محمد بن علي بن سليمان الجذامي الشريشي (ابن رفاعة)، ت. 637هـ.
ـ أبو بكر محمد بن علي الأنصاري الشريشي الغزال، ت. 620هـ(*).
ـ يعيش بن علي بن شَكيل الصدفي الشريشي.
ـ أبو العباس أحمد بن يعيش ابن شَكيل الصدفي الشريشي، ت. 605هـ.
ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الأنصاري (ابن البنّاء) الشريشي، ت. 635هـ.
ـ أبو بكر عبد الله بن إبراهيم الأنصاري الشريشي، ت. ق. 6–7هـ.
ـ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفهري البونسي الشريشي، ت. 651هـ.
ـ حسن بن موسى بن هشام اللحمي الشريشي، ت. ق. 6–7هـ.
ـ أبو الحسن الشريشي النحوي، ت. ق. 6–7هـ.
ـ أبو رزيق الشريشي، ت. ق. 6–7هـ.
ـ أبو عبد الله محمد بن مالك الفهري الشريشي، ت. 592هـ.
ـ أبو بكر يحيى بن عيسى ابن أزهر الحجري الشريشي، ت. 584هـ.
ـ أبو بكر محمد بن يوسف الأزدي الشريشي، ت. 614هـ.
ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن حباسة الأزدي الشريشي، ت، ق. 6هـ(*).
ـ أبو حمص عمر بن عياد اليحصبي الشريشي، ت. 545هـ.
ـ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي ابن الفخار، ت. 641هـ.
ـ أبو بكر يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن بن أزهر الشريشي، ت. 584هـ.
ـ أبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن بن أزهر الحجري الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ـ أبو القاسم عيسى بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن بن أزهر الحجري الشريشي، ت. 637هـ.
ـ أبو الحجاج يوسف بن معن الأزدي الشريشي، ت. ق. 6هـ.
ـ يوسف بن محمد بن علي الأنصازي الغزال الشريشي، ت. 620هـ.

(*) هذه الأسماء مجرّدة من الأجزاء الموجودة من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي.

فهرس الآيات القرآنية

الآيــة	رقمها	الســورة	الصفحة
ـ استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين	97	يـوســف	33
ـ غلقت الأبواب وقالت هيت لك	23	يـوســف	33
ـ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه، فسنوتيه أجرا عظيما	10	الفـتــح	13
ـ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون	41	العنكـبوت	110
ـ وكفى بالله شهيدا	79	النســاء	13
ـ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله... الآية	169	آل عمران	128
ـ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار	43	النــور	66

فهرس الحديث النبوي الشريف

إن من الشعر لحكمة : 123.

فهرس الأمثال

لا تعدم الحسناء ذا ما : 22.

مجبنة الظهر : خرج نارها وقل طلابها : 28.

. نظر المجبنة أخير من أكلها : 28.

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ــ د ــ

ــ ذ ــ

ــ ر ــ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس قوافي الأشعار

ـ د ـ

ـ ر ـ

فهرس الموضوعات



الايداع القانوني رقم : 1996/234

ردمك 6 - 1- 9943 - 9981